د . حسين كفافي

الخديوي إسماعيل

ومعشوقته مصر



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الخديو إسماعيل ومعشـوقته مصـر

الغلاف للفنان : مصطفى حسين
الإخراج الفنى : محمد قطب

الخديو إسماعيل ومعشوقته مصر

د. حسين كفـــافى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧



اهـــــداء

أهدى هذا الكتـاب إلى الأم الكبرى مصر وشعبها العظيم فى ذكرى إسمـاعيل باشا أحد حكام مـصر المفترى عليهم الذى قدم الكثير وقد آن الأوان لكى نقدم لذكراه .... كلمة وفـاء .

د . حســين كفـافى



المقدمة

لقد رحل إسماعيل عن دنيا الأحياء واستقر بعد الموت بين يدى الله سبحانه وتعالى لأكثر من قرن مضى، بحسناته وسيئاته ، غريبا بعيداً عن وطنه الذى أحبه .. وترك من ورائه الكثير من القيم الحضارية النبيلة التى تجسدت فى تخطيط وإنشاء المدن الكبرى ، وفى استكمال الأحياء وتجميلها أو إنشاء الحدائق وشق الترع وإقامة الكبارى ومد خطوط شبكات كثيرة من السكك الحديدية ، كذلك وضع الأساس للنظارات والمصالح الحكومية والمؤسسات الدستورية والشعبية والفنية والثقافية القومية كالأوبرا والمتاحف، فبلور بذلك ما قد أرساه جده محمد على باشا بانى مصر الحديثة .

لقد ترك وراءه أيضا سيلا من الإشاعات العديدة مازال يلاحقها الكثير من التردد عن إسرافه وحبه للحياة إلى ما بعد أكثر من قرن على نهاية ولايته على مصر ..

فلك قارئى العزيز أن تحكم ، بعد أن نمضى سوياً على متن هذا الكتاب مع الخديوى إسماعيل وما حققه لمصر وقدمه لها خلال ستة عشر عاماً ما

يجعلك تقف على ما له وما عليه من أعمال ، بكلمة صدق لرجل أحب مصر وأعطى لها كل ما يملك من حب وصدق وعلو همّة، وأيضاً أفاض عليها من روحه فبادلته شعوره وأسلمته قيادتها عن وعى بخطته التى علا وارتقى بتنفيذها وتوصيلها للأجيال عمارة وفنًا وشهرة ..

لكن فى ظل هذا الوعى واجهته حروب متعددة الاتجاهات حتى من أقرب المقربين إليه ، مما يجعلنا نعتبره فى الحقيقة امتداداً لجده محمد على باشا بانى مصر الحديثة!! فكيف تضافرت قوى الشر والفساد ضده لتنفرد بأمر مصر؟! وكانت أولى قوى الشر هذه هى الدول الأوروبية التى دبرت من ناحيتها خطة لإقصاء إسماعيل عن حكم مصر . فانجلترا امتدادا لحملتها الشهيرة على مصر ١٨٠٧ ولازالت عينها على مصر من ناحية ، وفرنسا من ناحية أخرى تجدد إحساسها بالندم على خروجها من مصر ..

وأحس الباب العالى بأن إسماعيل يطمع فى الاستقلال لذلك وُضِعَ فى القائمة السوداء بقصد التخلص منه ، لقد ازداد حقد السلطان عبد الحميد لدى توليه السلطة فى استانبول من نجاح إسماعيل فى حكم مصر ومن تفوقه فى إدارتها عزماً لتطويرها والوصول بها إلى مصاف الدول الأوربية المتقدمة ومن عوامل زيادة حقد السلطان استطاعة إسماعيل خلال سنوات قليلة أن يحقق من الصور الحضارية ما كان مستحيلا على غيره .. ومن أكبر مظاهر هذا التقدم كانت احتفالات افتتاح قناة السويس بأبهتها وفخامتها وهكذا لم تقتصر الحرب على جبهة هؤلاء الأوربيين سواء أكانت انجلترا أو فرنسا أو النمسا أو روسيا أو السلطان بتركيا بل كانت الجبهة العتيدة فى الحرب تأتى من ناحية أسرته الخاصة خصوصاً المكائد التى كانت تحوطه من النساء بأروقة القصور سواء من الزوجات ، أو من المحظيات .. ومهما تعددت الأسباب الحركية هذه فإن الحرب جاءت أشد

ما تكون ضراوة من أقربهم إليه ، وهى من أخيه مصطفى فاضل باشا الوزير فى الوزارة التركية والذى كان يطمع فى رئاسة هذه الوزارة (أى يكون الصدر الأعظم) ، هكذا كان وعد السلطان له بها!

ومن ذلك يتضح كيف كانت كافة القوى سواء كانت خارجية أو داخلية ضد إسماعيل ناهيك عن القوى المتخفية وراء محاولة اقتناص فوزها بنصيب من تركة القضاء على إسماعيل ودولته الغنية منذ أن ولى الحكم وهو لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره خاليا من خبرة المكائد والوقيعة والدسائس التى تمكنه من المجابهة لهذه القوى ومقاومة أى ضغط من ضغوطها فى الداخل أو الخارج وإذا ما انقلب عليه معظم أصدقائه القدامى ـ وكأنها مؤموامرة حبكت أنسجتها بمهارة للإيقاع بها «مصر وحاكمها المقدام» .. فالوثائق الرسمية تطالعنا بدلالة بالغة كيف تمسك الدائنون بشروطهم القاسية للإسراع بالوفاء بطريقة مريبة بتشجيع من الدول الطامعة الأوروبية المنتهزة المؤيدة لذلك الجانب من الجشع البالغ (البيوت ـ الرهونات) وغالبية من بيدهم أمرها أصحاب الامتيازات ومن اليهود مما سنستعرضه معا عزيزى القارئ فى الصفحات القادمة.

وبقدر ما استطاع محمد على تهديد القسطنطينية بفتوحاته العسكرية بقيادة إبراهيم باشا حيث اهتز لها عرش سلاطين آل عثمان .. فلأول مرة منذ أربعة قرون مضت قبل ذلك منذ تأسيسها تزعزت أركان الإمبراطورية العثمانية بقدر ما استطاع إسماعيل أن يمد مظلة الحضارة المصرية إلى قلب القارة الأفريقية وحتى خط الاستواء فيما يعرف بالامبراطورية المصرية «عصر إسماعيل» هذا فى ذاته كفيل بانطلاقة الحقد عليه من تركيا بل جعل الغيرة تستمر فى انطلاقها إلى رغبة الدول الأوروبية نحو السعى لاستعمار سائر أفريقيا.

إننا فى هذا الكتاب نود أن نظهر ملامح شخصية إسماعيل الحقيقية التى تبرز فيها عزيمته القوية للتطوير وللإصلاح ووضع المشروعات القومية التى تبناها مستخدما إمكاناته الإدارية ومساهمته الشخصية فى جميع الأعمال الحكومية اللازمة لطموحاته لمصر الامبراطورية العظيمة وقتدئذ بل المستقلة عن تركيا امتدادا لأمنية جده محمد على باشا إلا أن إسماعيل باشا اضطر إزاء جسامة المؤامرات والضغوط من استانبول لاستصدار عدد من الفرمانات التى حققت لمصر هذا الاستقلال الموعود به نظير الابتزاز ، ليس من الوزراء الأتراك فقط بل من السلطان عبد العزيز نفسه مما كان من شأنه زيادة توتر العلاقات بين مصر وتركيا إلى الحد الذى دفع الخديوى إسماعيل ليقول : «إنى أجارى المدنية وتركيا جامدة لا تتحرك فهل الذنب ذنبى؟!»

ومشكلة المشاكل بالنسبة لإسماعيل باشا هى فى الحقيقة المأزق المالى الذى أوقعت فيه مصر باستعجال الدائنين سداد الديون التى لاحقته بالنسبة للدائنين، ومثار عقدة هذه الديون كالتزامات نشأت فى محاولته إصلاح كافة ما أفسده الدهر والرجعية خلال عصر سعيد باشا وإن امتدت جذورها مع بداية مشروع قناة السويس التى عقدها هذا الوالى مقتنعا بجديتها وعظيم فائدتها لمستقبل مصر.

د. حسين كفافى

تقـــديم

بقلم الدكتور يونان لبيب رزق

بين دفتى هذا الكتاب عـاشقان لمصر، أولهما ارتآه المؤلف فى الخديوى إسماعيل، وثانيهما هو الدكتور حسين كفافى نفسه.

والمشكلة التى تعانى منها الدراسات التى تحفل بأكثر من عاشق هى أن عين العـاشق فى العـادة كليلة عن كل عـيوب المحـبوب وحـادة على كل مزاياه، الأمر الذى يؤدى إلى أن تكون هدفا لتوجيه الانتقادات خاصة من جانب المؤرخين.

فـهم يرونـهـا حـافلة بالعـواطف الفـوارة التى تؤدى إلى إبـراز جـانب من الصورة على حساب جانب آخر ..

وهم يرونـهـا ذات طبيعة انـتقائية مما يختلف مع منهـجـهم الذى تعلموه ويعلموه، فـمهمة المؤرخ من خلال هذا المنهج البحث عن كل المادة العلمية التى تعينه على تناول مـوضوعه، أما مـوقف العاشق فيقوم على البحث عن كل مـا يثبت أن المعشوق هو صاحب الصورة التى رسمـهـا فى وجدانه .. جـميلة بل مـغرقة في الجمـال، الأمر الذى يجـعله يستبـعد بشكل عفـوى أو متعمد كل ما يمكن أن يسىء لهذه الصورة !

وهم يرونها ذات صبغة أحادية فترسم «بروفيلا» جانبيا للشخصية أو للحدث محل الدراسة ، ومثل هذا «البروفيل» فى العادة لا يشف كل ملامح الصورة .. وإذا كان القائمون على اصدار «الهويات الشخصية» يرفضون هذا النوع من الصور، فإن المؤرخين المحترفين يشاركونهم فى التحفظ عليها إن لم يتمكنوا من رفضها.

لكل هذه الأسباب نعتقد مقدما أن المؤرخين المحترفين سيعترضون على هذا العمل الذى قام على وضعه الدكتور كفافى، ومع ذلك فإننا نرى أن الضرورات أحيانا تقتضى تأليف ونشر مثل تلك الأعمال ..

بعض هذه الضرورات نابعة من الحاجة الى إشاعة المعرفة التاريخية بين قاعدة عريضة من القراء الذين لا تستهويهم الكتابات العلمية، بكل القيود الصارمة التى يفرضها واضعوها على أنفسهم والتى تتسم بقدر من الحياد البارد الذى قد يكون محببا من الدارسين الأكاديميين ولا يكون قريبا لقلوب القاعدة العريضة من القراء الذين يفضلونها ساخنة !

البعض الآخر من هذه الضرورات صادر عما عرفه ميدان الكتابة التاريخية، ولفترة غير قصيرة من محاولة الحط من قيمة فترة من التاريخ المصرى لحساب فترة أخرى، خاصة لما سمى بالعصر الملكى، أو الفترة السابقة على عام ١٩٥٢ .

فقد تصور بعض الكتاب ، ولسوء الحظ كان بعضهم محسوبا على المؤرخين الأكاديميين .. تصوروا أن إظهار سلبيات ما سمى لوقت «بالعهد البائد» انما يدرجهم فى قوائم الوطنيين ، بينما نعتقد أنه لو تم ادراجهم من خلال تلك الكتابات فسوف يدرجون فى قوائم أخرى لا نود توصيفها هنا !

استتبع ذلك أن استنفر هذا النوع من الكتابات آخرين، منهم صاحب هذا العمل إلى العكوف على البحث عن الوجه الآخر الذى يؤكد على فضل ذلك

العهد ووطنية حكامه، أو بعضهم ، وكان منهم الدكتور حسين كفافى، وفيما نرى فأن لأصحاب هذه الكتابات الحق .. كل الحق فى الرّد، ومن حق القارئ الحق .. كل الحق فى أن يطلع على وجهة النظر الأخرى، بغض البصر عن رأى المؤرخين المحترفين فى هؤلاء وأولئك !

البعض الأخير من هذه الضرورات ناتج عن الفترة التى نعيشها ، والتى قام أفراد، بل ومؤسسات بأكملها، بمحاولات مستمرة لطمس ذاكرة الأمة المصرية ..

ومع أننا لا نأخذ بالتفسير التآمرى للتاريخ الا أن فيما بين ما نراه، ومنذ سنوات مضت، فإن هناك خطة وئيدة تتسم بقدر كبير من الاصرار ، على طمس كل ما هو ايجابى فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر .. تاريخ بناء الدولة الحديثة والأخذ بأسباب التمدن ونشوء الفكر الوطنى الذى جعل لمصر هذه المكانة المتميزة على هذه الرقعة من العالم .. الرقعة العربية الاسلامية الافريقية.

ومن ثم يكون لمثل هذه الكتابات التى نصنف هذا العمل من بينها ضرورة وطنية ، الأمر الذى كان واضحا كل الوضوح فى طريقة التناول التى وضع بها الدكتور كفافى كتابه .

تبقى الاشارة الى أنه كان لى حظ كتابة التقديم لعمل سابق لصاحب هذا الكتاب وهو مؤلفه الذى صدر تحت عنوان «محمد على ـ رؤية لحادثة القلعة» ، والذى صدر عن هيئة الكتاب عام ١٩٩٢، ولقى اقبالا ملحوظا من جموع القراء.

وفيما نراه فإن هذا العمل من جانب الدكتور كفافى هو امتداد لعمله السابق ..

فاذا كان محمد على يمثل العلامة البارزة رقم (١) فى التاريخ المصرى الحديث فإن اسماعيل يمثل العلامة البارزة رقم (٢).

وإذا كان المؤلف قد التزم بالدفاع عن محمد على من خلال تقديمه لتفسير معتمد لما سماه حادثة القلعة ولما سماه المؤرخون بمذبحة المماليك، فإنه التزم خطة الدفاع عن كثير من تصرفات اسماعيل وحاول أن يفسرها ولا نقول يبررها.

أملنا أن يلقى هذا العمل نفس القبول والاقبال الذى لقيه عمله الأول، وأملنا فيما هو أكثر من ذلك أن يثير من المناقشات والجدل ما لم يثره عمله السابق.

وعلى الله قصد السبيل ،،

دكتور يونان لبيب رزق

النشأة ...

« يا إسماعيل ... إذا حفظت قطعة كاملة ثلاثة أبيات أو خمسة أبيات من كتاب التحفة سمحت لك أن تمتطى فرسا »

إبراهيم باشا

دمشق فى ٣١ أكتوبر ١٨٣٩



كانت ولادة إسماعيل فى الساعة الأولى من ليلة الإثنين فى السابع عشر من شـهـر رجـب ١٢٤٥هـ (الموافق ٣١ ديسـمـبـر ١٨٣٠م) فى قـصـر المسافرخانة بالجمالية ؛ وكانت مصر حينذاك فى أحسن أحوالها ، فقد حققت نجاحاً فى كل المجالات وانتصارات فى عدة حروب منها : الانتصار على الخارجين فى الجزيرة العربية واستقرار الأمن بها وإعادة السلام للأراضى المقدسة لضمان سلامة الحجاج والقيام بمناسك الحج بمكة وجدة والمدينة ، كما أظهرت مصر القوة فى شرق البحر الأبيض المتوسط، وتم قمع الثورات والانتفاضات فى جزيرة قبرص وكريت وأيضا بجزر بحر إيجه .. هذا علاوة على البلقان وتصدى الأسطول المصرى الجديد للدول الأوروبية، ثم ماتم من فتوحات مصر الأفريقية وبث جوانب الحضارة المصرية بالسودان وذلك ببناء المدن به .

كان إبراهيم باشا سرٌ عسكر الجيوش المصرية ، أى القائد الأعلى للجيوش المصرية وعلى رأس هذه الحملات وهذه الانتصارات ... غالبا ما يكون غائبا عن أرض الوطن بعيدا عن بيته وأولاده إلا فترات قصيرة منها الفترة ما بين انتهاء حرب المورة والتحضير لحملة الشام وكان فى مصر حينذاك . وفى ذلك الوقت كان عمره أربعين عاماً . وقد مضى على

زواجه حوالى عشرين عاماً ، حين رزقه الله بابنه إسماعيل وبالبحث لم نعثر على ترتيب إسماعيل بين إخوته العديدين بالتحديد ، لكن من المؤكد أن أكبرهم كان الأمير أحمد رفعت ، أما الأمير مصطفى فاضل باشا ، فكان أصغر من إسماعيل بعدة شهور إذ أنهما من أمّين مختلفتين ، وهو الذى تقلد منصب الوزارة عدة مرات فى الوزارة العثمانية وسوف يأتى ذكره فيما بعد.. المهم أن إسماعيل كان نابها منذ صغره ، فيبدو أنه كان ذا منزلة خاصة عند والده وجده محمد على ، ولدى من يحيطون به من معلميه ومدرسيه إبان مراحل تعليمه وتربيته وتثقيفه . والمعروف عنهما ـ محمد على باشا وإبراهيم باشا ـ انهما من ذوى الفراسة فى اختيار الرجال لمهام معينة مثل تربية هذا الناشئ إسماعيل الذى أحيط بكل الرعاية منذ نعومة أظافره ، فتعلم مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية وقليلا من الرياضيات والعلوم الطبيعية .. وأثناء استقرار إبراهيم باشا بالشام بعد حملتها الشهيرة بدافع من متابعة المفاوضات التى استمرت عشر سنوات وبتدخل الدول الأوروبية بغرض تحديد نفوذ محمد على وتحجيمه ، انتهت بصدور فرمان مايو ١٨٤١ .. وأثناء طفولة إسماعيل يجدر بالذكر أنه أصيب بمرض رمدى فى كلا عينيه يمنعه من الدراسة فاستقدمه والده بمقامه فى الشام فى دمشق (١) بالذات . كان إبراهيم باشا يفضل الاستقرار بها لاعتدال مناخها وجوها أكثر من غيرها من بلاد الشام ، على أمل أن ذلك الطقس المعتدل يساعد على شفاء إبنه النابه العزيز وكان حينذاك عمر إسماعيل حوالى عشرة أعوام .. أما استذكاره للدروس فكان يتم سماعاً بما يضمن عدم تصفحه للكتب وبالتالى إجهاد بصره بتلك القراءة .. وكان إبراهيم باشا شديد الحرص على أن يجيد أولاده اللغة العربية لقراءة القرآن

---

(١) كانت العاصمة للدولة الأموية قرابة قرن من الزمان منذ استقر بها معاوية واليا للشام .

الكريم وحفظ مأثورات من الأدب العربى ، فبدأ يحفظ كل يوم ثلاثة أبيات أو خمسة أبيات من كتاب التحفة واستمر والده سرّ عسكر الجيوش المصرية (وقت أن كان بالشام) يشجعه على استذكار دروسه .. ولحب إسماعيل لركوب الخيل كان يستحثه على الاستذكار ويكافئه على ذلك بركوب الخيل وفى هذا الصدد كان يقول له «إذا حفظت دروسك كاملة .. سمحت لك أن تمتطى فرساً» فحقق بالفعل فى ذلك اليوم قطعة كاملة. من (١) التحفة فنفذ والده وعده له وأمر بأن يركب فرساً وعند الأصيل أمر السوارى الذى يمسك لجام الفرس بالتخلى عن الفرس وطلب منه أن يطلق العنان للفرس لكى يريه شجاعة إسماعيل الذى لم يكن له حينذاك عهد بركوب الخيل واستجاب إسماعيل لرغبة والده فى استعراض شجاعته ، فهز إسماعيل الفرس فكاد ينخلع ويسقط من على ظهره ، وأخذ فى العدو وسرعان ما استرد توازنه على ظهره وراح يبعث بضحكات السرور والغبطة ، ولدى رجوعهم إلى المنزل شجعه والده على استذكار دروسه واستمراره فى التدريب على الفروسية وهنأه على شجاعته وأخبره بقوله «إذا أردت أن تمتطى صهوة الفرس فعليك أن تحفظ لذلك كل يوم ثلاثة أو أربعة أبيات كاملة». (٢) كان يرافق إبراهيم باشا فى هذه الصحبة كامل بك ، وهو أحد مساعديه ومرافقيه فى هذه الجولة ، ويقول إبراهيم باشا فى هذا الصدد عن إعجاب كامل بك :

«إننى وكامل بك كاد يغمى علينا من فرط الضحك وهو مكب على حفظ القطعة التى ينشدها على نغمات الحجاز والعجم عشيران والحسين».

---

(١) قصيدة من الأدب القديم .

(٢) چورج صبرى بك إسماعيل مطبعة دار الكتب المصرية ص٥ .

ومن شدة إعجابه بهذه الخطة قال كامل بك : «مامن وسيلة لتلقى الدرس أنجح من هذه وليتك اصطنعتها مع نجلك أحمد بك» فأجابه إبراهيم باشا «لم يكن قد خطر ببالى» .. ويبدو أن هذا النوع من الترغيب فى تحصيله للدرس كان يهيئ لهم لونا من التسلية بالسماع فضلا عن فوائده.

بعد أن أمضى إسماعيل بك فترة مع والده بدمشق إلى أن شفى من الرمد الذى أصابه أرسله والده إلى ڤيينا عاصمة النمسا حيث توفّر على علاجه أخصائى شهير حينذاك ، وفى هذا الوقت كانت ڤيينا عاصمة عظيمة ظلت تراقب علو شأن محمد على باشا وبالذات الخلافات التى شجرت بينه وبين السلطان «محمود الثانى» فالانتصارات التى أحرزتها الجيوش المصرية لازالت أصداؤها تتردد فى أنحاء أوروبا بأسرها والتى دعت الامير ميترينخ وزير الخارجية والسياسى النمساوى الشهير أن لا يألو جهدا فى التودد إلى مصر الناهضة فأخذ يعطف على الأمير إسماعيل بك ويحسن وفادته راميا بذلك إلى تكريم إبراهيم باشا بطل نذيب فى شخصه ويعمل فى آن واحد على إغرائه لاستبقاء إسماعيل بالنمسا لتلقى العلم على أيدى أساتذتها والتى لقى بها إسماعيل أكبر حفاوة قلما يحظى بها غيره من الأمراء .. فالامبراطور وسائر أفراد الأسرة المالكة النمساوية أخذوا يؤثرونه بجميل العناية ويولونه من الالتفاف ما يلهج بذكره . فقد جاء بكتاب بوتفور رائد الأمير الموجه إلى آرتين بك «إن الامبراطورة النمساوية ـ الوالدة ـ غيرت مكانها مرتين لتدرأ أشعة الشمس عن عين إسماعيل وكانت دائما تقدم له شتى النصائح لاتقاء شر التقلبات الجوية ليتعجل التماثل للشفاء» ، وفى هذا الأمر من الاهتمام البالغ به ما يقول الأمير إسماعيل بك عنه «مالقيت من والدتى وعمتى نصائح أزخر بالعطف والحنان علىّ أكثر مما لقيته من نصائح الامبراطورة» .كان هذا الأمير اليافع إسماعيل بأناقته وزيه

الشرقى الفاخر الذى كان يفخر به يفتن أندية ڤيينا وحفلات البلاط وأخذ الأمير من ناحيته يتجاوب مع هذه المجتمعات الراقية ليألفها بعد تحفظ إن لم يكن بعد حياء ملحوظين إستمرا ملازمه لشهور عديدة .. فهذه المجتمعات تعد أرقى المجتمعات فى أوروبا .. وأعلاها ثقافة وأوفرها علماً.

استمرت إقامة إسماعيل حوالى عامين زار أثناءها معظم المبانى والمؤسسات والمدارس الحربية حيث كان يقابل بأحسن ما يكون من ترحاب ويشرف على تعليمه هناك بوتفور «رائد الأمير» الذى ظل من حين لآخر يحرر التقارير عنه إلى آرتين بك المشرف على تعليم الأمراء من أبناء وأحفاد محمد على وأيضا على سائر طلبة البعثات.

وإبان وجود الأمير إسماعيل بك فى ڤيينا للعلاج ظل يداوم على دراسة اللغة الفرنسية وساعده على تحصيلها والتقدم فيها والتحدث دون خجل بها عند ارتياده الأندية الاجتماعية الراقية التى كانت حينذاك لغة الثقافة والتخاطب السائرة فى أوروبا، وحتى لا يعوق تقدمه فى الفرنسية أرجئ تعليمه اللغة الألمانية منعاً من إجهاد بصره وظل يشجعه على ذلك البرنس ميترنيك وهو أحد الأمراء النمساويين الذى كان مكلفا بمتابعة الأمير المصرى من قبل امبراطور النمسا. فى هذا الصدد يقول ميترنيك لإسماعيل «نصيحتى لك أن تعتنى بإتقان اللغة الفرنسية لا أريد أن تعود إلى جدك وقد شفيت تماما فحسب بل تعود إليه وقد ألممت بهذه اللغة إلماماً تاماً»، كان الأمير إسماعيل محط أنظار ڤيينا حينذاك ، الجميع يهتم بكل ما يتصل بالأمير الشاب فأعماله مافتئت موسومة بسمة النبل المفعم بالصدق والعزيمة . كما ظل محل إعجاب الأمراء يسعون لمعرفته وصداقته فهو الحفيد الجديد لذلك الرجل الذى رجّ أركان الدنيا محمد على باشا . ضمن هؤلاء الأصدقاء الحميمين ممن كانوا يتوددون إليه من أمراء العائلة المالكة

النمساوية أمثال الآرشيدوق شارل والآرشيدوق لويس ليوصونه بأن يوجه كل همّه فى التقدم فى الدراسة ويقطع شوطا بعيداً فيها ليكون خليقا بما لأسرته العريقة من شهرة ذائعة وأفضال شائعة ملؤها المجد والفخار إلى أن جاءت أواخر عام ١٨٤٥ حيث قاربت فترة إقامته بڤيينا على الانتهاء كانت نية الوالى قد اتجهت حينذاك لتحويل بعثة حفيده إسماعيل المحبوب إلى باريس .. فقد قرر محمد على فى غضون هذه الفترة إنشاء مدرسة عسكرية مصرية فى باريس ، وقرر أن يوفد إليها نجليه حسين بك وحليم بك وحفيديه أحمد بك وإسماعيل بك (الخديو إسماعيل فيما بعد) لكى يتعلموا الفنون العسكرية فيها وافتتحت المدرسة فى سبتمبر عام ١٨٤٥ برعاية المارشال سولت وزير الحربية الفرنسى حينذاك ، وتولى إدارتها كولونيل من ضباط أركان حرب الجيش الفرنسى الكلونيل ركلور وبلغ عدد الشبان المصرين الذى أدخلهم محمد على فى هذه المدرسة خمسة وثمانين ولكنها لم تستمر أكثر من ٣ سنوات فعاد معظم طلابها إلى مصر وظل الآخرون فى باريس ليستكملوا دراستهم فى كليات مختلفة ، فكان نصيب إسماعيل استكمال دراسته فى كلية سان سير الحربية بناء على نصيحة المارشال دى دالماس ، وحسب رغبة والده وجده وعقدت لجان الاختبار ونجح الأمير فى اختبارات القبول للكلية التى استمرت ثلاث ساعات فحصل على الدرجات المطلوبة وبالإجماع صدر قرار قبول إسماعيل بك حين اعتزم افتتاحها وبدء الدراسة بها يوم ١٥ ديسمبر ١٨٤٨ .

هكذا طرح الأمير مظاهر الترف جانبا عن المدة التى قضاها فى ڤيينا ليلقى تأهيله العام كأمير من أسرة عريقة وعندما يرشد ويصبح أكبر أبناء هذه الأسرة يكون جديرا بها وبما يعهد إليه من مسئوليات.

عاصر إسماعيل باشا فترة حكم جده محمد على ، وكذلك والده إبراهيم باشا وكانت وفاتهما الاثنين معاً فى عام ١٨٤٩ ، حينذاك كان عمر

إسماعيل تسعة عشر عاماً وخلف إبراهيم فى الحكم عباس الأول بن طوسون بن محمد على ، وكان عباس يجفو عمه ويحقد عليه، وذلك لأسباب قديمة فقد كان محمد على يدلل عباس أكبر أحفاده ولأنه فقد والده وهو مازال فى السنوات الأولى من عمره إذ أنه قد ولد عام ١٨١٣ ووالده طوسون كان يحارب فى السعودية.

وإبراهيم باشا كان بطبيعته كجندى موهوب يفرط فى الضبط والربط مما سبب حساسية بين عباس وعمه إبراهيم . هكذا جاء عباس واليا على مصر والخصام بينه وبين بقية الأمراء ، فارتحل إسماعيل وبعض الأمراء إلى الآستانة ، حيث عينه السلطان عبد المجيد عضوا بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وأنعم عليه بالباشوية . ولم يعد إلى مصر إلا بعد وفاة عباس أثناء حكم سعيد إذ أن عباس قتل فى عام ١٨٥٤ فى ظروف مريبة بمؤامرة من الأمراء والأميرات المقيمين فى مصر حينذاك.

هكذا عاد إسماعيل إلى مصر وعمه سعيد واليا على مصر ونال إسماعيل من عمه عطفاً بالغا ، وعهد إليه برئاسة (مجلس الأحكام) أكبر هيئة قضائية فى البلاد حينذاك ، وأوفده فى عام ١٨٥٥ فى مهمة سياسية لدى الأمبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول فى توسيع نطاق استقلال مصر ، بعد اشتراكها مع الحلفاء فى حرب القرم ، فأدى إسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مطلب سعيد لمؤتمر الصلح بباريس ولكن لم يحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) فى رحلته موفداً من قبل سعيد ، فأكرم البابا وفادته ، ثم عاد إلى مصر ، ولم يخطر على بال إسماعيل أن يؤول حكم مصر من بعد سعيد إليه، إذ كان فى الأسرة من هم أكبر منه ، فكان أخوه الأكبر الأمير أحمد رفعت ، أحق منه فى خلافة سعيد باشا ، ولكن حدث أمر مفاجئ عام ١٨٥٨ ، أزال العقبة التى كانت تمنع إسماعيل من أن يكون وليا للعهد .

ذلك أن سعيد باشا ، أقام بالاسكندرية حفلة ودعا إليها أعضاء الأسرة فلبوا الدعوة ، ومن بينهم الأمير أحمد رفعت شقيقه الأكبر أما إسماعيل فقد اعتذر عن إجابة الدعوة ، وبينما كان الاميران عبد الحليم وأحمد رفعت عائدين إلى القاهرة ، بقطار خاص مع حاشيتهما . . وفى كفر الزيات لم يكن الكوبرى قد أنشئ بعد ...فقد كانت عربات القطار يتم نقلها على طوافات ، فحدث أن فقدت الطوافة ومن فوقها العربة التى تقل الأميران أحمد رفعت وعبد الحليم إذ سقطت العربة فى النيل فغرق أحمد رفعت ، ونجا عبد الحليم فأصبح إسماعيل بعد غرق أخيه ولياً للعهد لولاية مصر طبقا لنظام الوراثة القديم.

وقد استفاد إسماعيل من تدريه على تولى بعض المناصب وهو بعد ولى للعهد ، فعهد إليه سعيد مرتين وجعله نائبا عنه أثناء غيابه عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا عام ١٨٥٩ والمرة الثانية حينما ذهب إلى الحجاز لزيارة المدينة المنورة فى أوائل عام ١٨٦١ .

وكان سعيد يثنى على إسماعيل ابن أخيه ويبدى له ارتياحه من الطريقة التى أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية إلى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد إليه إخماد بعض الفتن التى اشتعلت فى السودان ، وقام إسماعيل بهذه المأمورية دون أن تراق قطرة دم واحدة.

وتولى إسماعيل باشا عرش مصر فى ١٨ يناير عام ١٨٦٣ بعد أن جاءت المنية سعيد باشا.



«إنى أشعر شعورا عميقا بالواجب الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فى عنقى ، وبما أن أساس كل إدارة جديدة إنما هو النظام والاقتصاد فى المالية فإنى سأجعلها نبراسا فى كل أعمالى ، وأعمل على توطيد أركانها بكل مافى وسعى» .

إسماعيل

٢٠ يناير ١٨٦٣



ارتقى إسماعيل باشا حكم مصر والطموحات تملأ وجدانه وقد تناولنا فى الفصل الأول نشأته وحظوته عند والده وجده ورعايتهما له ، لما لوحظ فيه من ذكاء ناقد وبوادر الألمعية .. وصقله ما اكتسبه من تدريب وتعليم وتربية أوربية حديثة ، وما شاهده من قمم الأبهة، وعاصر حفلات السمر وحفلات الأوبرا والمسرح فى ڤيينا عاصمة امبراطورية النمسا أثناء بعثته الأولى ، كما عاصر تطبيقات الديمقراطية المحددة والمختلطة بضروب الحرية بباريس عاصمة فرنسا . ولا ريب أن قد تناهت إلى أسماعه ما حققته حملات محمد على باشا فى حرب المورة باليونان كذلك خوضه الحروب الوهابية بالجزيرة العربية وما أعقبها من توسع أملاك مصر وإدارتها للحجاز ونجد وعسير والإحساء شرقاً حتى الخليج العربى : قطر والبحرين وحدود وعمان جنوباً ، وصل إلى نهاية قرب باب المندب فضلا عن الضفة الأخرى للبحر الأحمر لتشمل أرتيريا وچيبوتى والصومال وعموم السودان المصرى وكذلك امتداد سلطان بلاده مصر ليشمل أجزاء مترامية بالشام وهو ما يعرف حاليا بكل من بلاد سوريا ولبنان وفلسطين والأردن .. فوجب تجديد ذاك العهد عن طريق التصميم على انجازات يضع أساسها ومشروعات جليلة يقوم بها إسماعيل باشا ذاته بتحقيقها فضلا عن ضروب الإصلاح فى أنظمة الدولة التى يتبناها لإرساء دعائم مختلف

المجالات الحضارية والثقافية التى تدعم مصر وامبراطوريتها النامية .. هذا ما سنعقد له بحثنا فى هذا الفصل مع ارتقاء الخديو إسماعيل عرش مصر فى ظروف اكتنفتها وقت أن كانت مصر مستهدفة أن يدخلها الانجليز إن عاجلا وإن آجلا منذ محاولات القائد البحرى الانجليزى نلسون الاستيلاء عليها إبان غزو نابليون لها عام ١٧٩٨م ومحاولات بريطانيا مستمرة للتربص بمصر إلى أن أتيح لها غزوها ربيع عام ١٨٠٧م حيث كانت هزيمتهم فى رشيد وفى الرحمانية نفس العام أمام قوات محمد على.

هكذا كانت مصر مستهدفة خلال سياسة تقسيم العالم بين فرنسا وانجلترا وبقية الدول الأوروبية إلى أن دخلت بريطانيا مصر فيما بعد عام ١٨٨٢م وبحجة واهية فى عهد الخديو توفيق .

عدم إدراك ظروف مصر هذه عند بدء ولاية إسماعيل لها عام ١٨٦٣ سواء من التكتل الخارجى أو فى المناخ الملبد بالغيوم والملئ بالعقبات وبكل معانى النقد المغرض من الداخل ومن الباب العالى الذى كان يتسم بالحقد والغيرة والبغضاء لشخصه إلى حد أن يرمى إسماعيل تارة بالإسراف لكثرة ما قام به من إنجازات المشروعات بحجة أنها اثقلت كاهل خزانة مصر .. وأحيانا أخرى يرمونه بالطموح الزائد.. وما أسهل ذلك النقد واتهامه بهذا اللوم ، دون تقدير لإسماعيل ذلك الذى طاول الزمن فخره فى تحقيق طموحاته سريعاً وسار حثيثاً فى ستة عشر عاماً بالتحديد ليعمر ويؤسس ويقيم ما تضيق الأجيال عن تحقيقه بالفعل .. وهذا ما سوف نستعرضه عزيزى القارئ فى الصفحات التالية ..

هكذا أخذت مصر تتقدم فى الوقت الذى اعترتها فيه ظروف أشد ما تكون قسوة مع بداية ولاية إسماعيل باشا والعلاقات لا تزال معقدة بين



اسماعيل باشا (خديو مصر) من سنة ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

مصر وتركيا .. فالسلطان عبد العزيز حينذاك كان يحقد على مصر لإحساسه أنها فى تقدم دائم ، بينما تركيا فى تخلف وتأخر عن ركب الدول .. وأيضا أزمة قناة السويس وعدم رضاء السلطان على العقد الذى تم إبرامه بين الخديو سعيد وفرنسا بشأنها . وقد ذكرنا من قبل كيف لاتزال بريطانيا واضعة بل مسلطة عينيها على مصر وذلك بتأثير هزيمة حملتها على رشيد فى ١٨٠٧ م بقيادة فريزر أمام قوات محمد على وتأكدت الهزيمة فى معركة الرحمانية حين خسر الانجليز ٤٠٠ أربعمائة قتيل وأُسِر منهم مثل هذا العدد .. وما أن بدت رغبتهم فى عقد الصلح وطلبوا الإفراج عن الأسرى وشجعهم محمد على باشا واشترط جلاءهم عن الاسكندرية .

هكذا دارت مفاوضات بين الفريقين على هذه الشروط وعرض محمد على مقابل الجلاء أن يرعى التجارة إلى مصر وأن يقاوم أية قوة أوربية تسعى لاحتلالها .. وفى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧م تم إبرام الاتفاق بين الجانبين فأخلى الانجليز بموجبها مدينة الاسكندرية ، فأول ما أكدته هذه الاتفاقية هى سيادة مصر على أرضها .. وكانت أصداء الهزيمة لدى نفوس الانجليز من جهة .. وإلحاحهم على الرغبة فى الوصول مرة أخرى إلى مصر ، الطريق الرئيسى إلى الهند ومفتاح الشرق الدافع لهم ليدسوا لدى الباب العالى ويوشوا إليه بأن امتياز شركة قناة السويس إلى الفرنسيين ما هو إلا استعمار فرنسي وانتقاص من هيبة السلطان بمصر .. وبالفعل بدأ اعتقاد السلطان بهذا الرأى وهو أن فرنسا تريد تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية والذى استتبعه مشروع قناة السويس وما يترتب عليه من تعويضات تستحق للشركة الفرنسية كنص العقد بين الخديو السابق سعيد وصديقه الفرنسى ديليسبس .. فى ظل هذا الواقع جاء إسماعيل إلى ولاية مصر وفى طريقه ألغام عديدة .

من تركيا التى تدعى الحق التاريخى والشرعى حيث مقر الخلافة الإسلامية ومن فرنسا فى شكل امتياز شركة فرنسية بقناة السويس.

ومن انجلترا .. كمتنافسين هدفهما الدائم هو الاستيلاء على مصر امتدادا للحروب الصليبية الاقتصادية - الاستعمارية . الكل يترصد ويترقب ويتاهب .

ولم يكن لإسماعيل بد من الالتزام بقاعدة منطقية فى تنفيذ برنامجه الإصلاحى مبعثها أنه ظل يعتقد بأن استمرار خضوع مصر للنظام العثمانى بفرمان ١٨٤١ الذى وضع لوراثة العرش فى مصر بات أقرب ما يكون نحو هدف تحقيق الاستقرار المنشود لمصر والسلام المطلوب للعائلة العلوية خاصة بعد أن سخّر لفترة طويلة وأتاح ما يهيئ لتركيا حبك الدسائس بين أفراد الأسرة ما شاء لها الهوى بذلك بعد ما فقدت تركيا حرية التصرف فى سياستها لما انتابها من ضعف وصارت تلقب بالرجل المريض .. إلى حد أن استسلمت لإرادة أوروبا أيا كانت دولها روسيا من ناحية أثر حروبها العديدة وغاراتها على الأملاك العثمانية على حدودها الجنوبية ، أو النمسا وبروسيا من ناحية أخرى أو انجلترا وفرنسا من ناحية ثالثة .. واحتمال تطرق الدس العثمانى للخديو وفق أهواء هذه الدول وبالتالى استمرار زعزعة استقرار مصر وتقدمها وأمنها .. حقيقة لم يكن لدى مؤسس الأسرة العلوية محمد على باشا ما يقلق عليه الشأن مثل مصير العرش من بعده إذ ولى عهده نجله الأكبر إبراهيم باشا كان اعتماد كولى عهد بإقرار من الباب العالى ذاته ، لكن مع عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد على لم يكن قد تحقق له من دواعى الاطمئنان ما تحقق لجده فالوضع قد اختلف يؤكده ماورد على لسان المسيو أوترى قنصل فرنسا بمصر وقت أن تولى إسماعيل باشا ولاية مصر.

فى هذا الصدد لما فاز إسماعيل بفرمان الوراثة ، وكان عباس باشا قد حصل من السلطان عبد المجيد عام ١٨٤٩ (أى قبل أربعة عشر عاماً مضت قبل ولاية إسماعيل) على وثيقة مآل العرش إلى ابن حفيده عباس ، وهذا يفسر تردد السلطان والجيش المصرى عند وفاة عباس ولم يزل هذا التردد إلا حينما صرح القناصل ، خصوصاً قنصل فرنسا العام ، بأنهم لا يستطيعون الاعتراف بوثيقة غير رسمية ومخالفة للتى وافقت عليها الدول الخمس عام ١٨٤١م.

واختتم أوترى كتابه بقوله (ويبقى هذا الحادث منقوشا فى ذاكرة إسماعيل) ، أى أنه مضى يفكر ويدبر كيف يعمل من أجل تحقيق سبل الاستقرار فى مصر وكيف يتحقق الاستقرار فى مصر وكيف يتحقق الاستقرار وحاكم البلاد فى قلق مستمر به؟!

فى هذا المناخ الضارى بل شديد الضراوة أصبح إسماعيل واليا على مصر بموجب فرمان ١٨ يناير ١٨٦٣ الصادر من الباب العالى السلطان عبد العزيز وتملأ رأس إسماعيل الطموحات والسياسات التى تخيلها ورسمها لنفسه من واقع التجارب التى مر بها والأحداث التى عايشها إن كانت فى مصر أو فى الشام أو النمسا أو فى فرنسا أيام دراسته وبعثته ـ أيا كان المناخ وأسبابه فإنه فى يوم ٢٠ يناير ١٨٦٣م بمناسبة الاحتفال بولاية إسماعيل باشا العرش ، وذلك الاحتفال الذى حضره قناصل الدول الأوروبية وعلى رأسهم عميد الهيئة القنصلية بالقاهرة قنصل فرنسا المسيو موان ، وألقيت فيها كلمات القناصل وهى بالطبع كلمات التهنئة ، ارتجل إسماعيل باشا كلمته قائلا : (أنى أشعر شعوراً عميقا بالواجب الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على عاتقى باستدعاء عمى إلى جواره ، وانتخابه إياى لتولى زمام الأحكام المصرية ، وإنى آمل فى ظل صاحب الجلالة الهمايونية السلطان

الأعظم ، أن أقوم قياماً حسنا بأداء ذلك الواجب وأنى موطن العزم حقاً ، على تخصيص كل ما أوتيت من ثبات وهمة لترقية شئون القطر ، الملقاة تقاليد حكمه إلىّ ولإنماء رخائه وبما أن أساس محل إدارة جيدة إنما هو النظام والاقتصاد فى المالية فإنى سأجعلها نبراسا فى كل أعمالى ، وأعمل على توطيد أركانها بكل مافى وسعى ، ولكى أقدم مثالاً صادقاً للجميع ودليلا محسوساً على إرادتى هذه الأكيدة ، فإنى قد عزمت منذ الآن على ترك النهج الذى سار عليه أسلافى ، وتقرير مرتب ثابت لى لن أتجاوزه أبداً فأتمكن بذلك من تخصيص جميع إيرادات القطر لإنماء شئونه الزراعية وتحسينها وإنى قد قررت أيضا إلغاء طريقة السخرة المشئومة التى اتبعتها الحكومة دائماً فى أشغالها ، والتى هى السبب الأهم بل الأوحد دون بلوغ القطر كل ماهو جدير به من نجاح .. وإنى لموقن أن التجارة الحرة ستجد فائدتها ومصلحتها فى هذه الاجراءات منتشر الرخاء ونعممه بين جميع الطبقات من الأهالى والسكان.

أما التعليم وهو أساس النجاح والرقي وإقامة معالم العدالة بقسطاس حقه التى هى محور كل أمن ، فإنى سأخصه بفائق عنايتى فينجم عن النظام فى المالية والإدارة وعدالة التوزيع توزيعاً لاتشوبه شائبة زيادة فى سهولة المعاملات وضمان سلامتها بين الاوروبيين والقطر المصرى) .

فخطاب إسماعيل هذا ماهو الاتعبير عن طموحاته في حكم مصر والوصول بها إلى ماكانت عليه من واقع تجاربه والصور العديدة التى علقت بذهنه خلال حياته منذ بعثته ودراسته بالنمسا وهو يافع وبفرنسا أثناء شبابه وعلى هذا الخطاب علق (لى موان) قنصل فرنسا السابق بكتابه إلى وزير الخارجية الفرنسية قائلا: «إن الخطاب الذى ألقاه إسماعيل باشا الوالى الجديد أمام أعضاء الهيئة القنصلية عند توليه الحكم فهو بمثابة

برنامج إدارى يفى بالحاجة كل الوفاء، وإن ماضى هذا الوالى يحملنى على الاعتقاد بأنه قادر على تنفيذ هذا البرنامج من جميع وجوهه. ومن الحق إنه يمكن الحكم على قيمة الرجل إذا تولى أعمالاً عامة، بالقياس على ماأصاب من نجاح فى تدبير أموره الخاصة).

ويقدر الحماس الذى ظل يسكن ضمير إسماعيل بقدر ماكانت العراقيل والظروف المتردية التى حُشدت فى طريقه وفى طريق مصر من كل الدول فى وقت واحد، من الدول الأوروبية ومن الدولة العثمانية نفسها كذلك من بعض أفراد عائلته فى هذا المناخ شديد الضراوة الملىء بالمؤامرات والدسائس .. استطاع إسماعيل أن يحقق لمصر ولشعب مصر الأساس الاجتماعى من خلال المؤسسات القومية: مجلس النظار (الوزراء) والنظارات والمصالح الحكومية العديدة الناشئة، ومن خلال النظام التشريعى (الماثل فى مجلس شورى النواب) والنظم القضائية الجديدة العامة والمتخصصة التى أرساها وقواعد وقوانين ونظم العمل اللازمة لتسيير العمل بكل هذه السلطات فى دقة متناهية وروتين منتظم هذا ماسوف نستعرضه معاً فى الصفحات التالية.

جاء إسماعيل إلى الحكم تملؤه قيم الحرية والانسانية ومفاهيم حقوق الإنسان ولاغرو فى ذلك فقد أمضى شبابه بفرنسا وباريس حيث مازالت تتردد أصداء أشعار الثورة الفرنسية «الحرية ــ الأخاء ــ المساواة» كل ذلك كان ومافتىء يحمله إسماعيل بين جوانحه وعلى رأس هذه القيم الإنسانية كانت فى تعبيراته الخاصة بلسان ترجمانه إلغاء السخرة بين عمال بلدة الأهالى ورعاية الأديان وحرية أداء شعائرها ــ الحياة الديمقراطية الحقة ــ تخفيف الضرائب عن كاهل المواطنين. هذا علاوة على هدف الوصول بالمدن الكبرى الجديدة فى مصر إلى الشكل الحضارى اللائق بها لتماثل

على الأقل المدن الأوروبية الشهيرة. وكذلك وصول المواطنين بها إلى الأمن والسلام الإجتماعى المنشود.

وهكذا منذ اليوم الأول لتولى إسماعيل ولاية مصر عقد العزم على إلغاء السخرة .. ففى الأيام الأولى لولايته الحكم يقول الخديوى اسماعيل باشا فى خطاب له على أثر صدور فرمان ولاية مصر:

(اعلنت عزمى على إلغاء السخرة هذا معنى من معانى العدالة والحرية أريد أن تتوافر عليه جهودى) ..

لقد نشأت فى مصر حالة جديدة لابد من الالتفات إليها. فمنذ أن تحققت حرية المعاملات، وعلى الأخص منذ نشبت الحرب الأمريكية، اثرى الفلاح وعقد اتصالات مباشرة مع المستهلكين الأوروبيين، فتبدلت بهذا الاتصال أفكاره، فلم يعد بوسعى أن أعتمد إلى مايعمد إليه جدى دون التعرض لعواقب وخيمة، وقد أخذ عليه هذا العمل أخذا مريرا بعد سنة ١٨٤٠ إ ن أعمال القناة وحدها تقتضى تجريد ٦٠,٠٠٠ رجل شهريا، والاستياء اليوم حاد وقد يثير القلق غداً. فإن جميع الأسلحة التى كانت مخزونة فى مصر وباعها المغفور له سعيد باشا قد بقيت فى البلاد، وأعلم أن فريقا كبيرا من الفلاحين قد اشتروا بثمن بخس مالايقل عن ثلاث بندقيات ليستطيعوا أن يحتفظوا بواحدة على الأقل يوم يجردون من السلاح وإنى أنوى أن استبدل السخرة بفرق الجيش إذ يمكن حينئذ المحافظة على الأمن العام بجزء منهم وأستخدام الباقين فى الأعمال العامة ولا أجهل أن استيفاء النظام الجديد يقتضى بعض الوقت فأنا فى حاجة إلى المعونة وأعتمد فى ذلك على فرنسا» ..

ويعقب روبرت ج كولكوهون قنصل انجلترا حينذاك بكتابه إلى وزير خارجيته:

«لاشك انكم علمتم بما ينويه الوالى من إلغاء السخرة إلغاء تاماً وإنى اوافق على المبدأ ذاته لكنى أرى من الفائدة توجيه النظر إلى أنه فى بلاد كبيرة كمصر كثير من الأعمال التى لايمكن تنفيذها إلا عن طريق السخرة. فالفلاح عامل ضعيف البنية لايستوفى حاجته من الغذاء، فلا يستطيع ثمانية ولاعشرة من الفلاحين أن يقوموا بالعمل الذى يقوم به عامل أوروبى فى يوم واحد، لذلك يكون أجر الفلاحين باهظ التكاليف على أساس تسويته بالعامل العادى منهم على أنه فى الأعمال الكبرى مالابد من تنفيذه كل عام. إذ يقوم عليه كيان البلاد أما الانتقادات الصاخبة التى ثارت فى العصر السابق (عهد سعيد) فكان منشؤها الإسراف فى الالتجاء إلى نظام السخرة لا فى النظام ذاته إذ كما هو معروف أن نظام السخرة ظل متبعاً فى كثير من الدول الأوروبية مثل روسيا وسأعرض هذه الاعتبارات على الوالى، وأقترح أن تنفذ بعض الأعمال المتعلقة بالمنفعة العامة، بتطبيق حكيم لنظام السخرة بحيث تلتزم الحكومة بأن توفر للعمال (المسخرين) قدراً كافيا من الغذاء مع الأدوات اللازمة، وبأن تحد على قدر المستطاع من الإلتجاء إلى هذا النظام وأن تعمل على ألا يُستخدم أى عامل إلا أياماً معدودة فى السنة»

القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٦٣

يتضح أن هذا الكتاب مؤرخ قبل تولية إسماعيل عرش مصر بأقل من أسبوع وهذا يؤكد رغبة إسماعيل باشا فى تحقيق العدالة والمساواة والحرية على أرض مصر .

و فى ٢٢ يناير عام ١٨٦٣ وبعد أربعة أيام فقط من صدور فرمان توليته حكم مصر ـ أصــدر أمرا كريمــاً إلى أحمد خورشـيد بك ـ ناظر المالية هذا نصه «إن الفردة (أى الضريبة) المقررة على سكان القاهرة وضواحيها قد سبق رفعها والتجاوز عنها مرة من قبل ، والآن قد انهالت علينا الشكاوى من طرف الأهالى بخصوص رفعها ، فبناء عليه ورأفة بأحوال الرعية ،

اقتضت إرادتنا رفع هذه الفردة والتجاوز عنها كلية ، اعتباراً من تاريخ أمرنا هذا» ..

يتضح من الأمر الكريم هذا مدى استجابة إسماعيل باشا لمطالب الشعب ومدى تجاوبه معهم ورغبته الأكيدة فى رفع الظلم عنهم ... وتتجلى إنسانيته وتعاطفه مع مطالب الشعب عندما أمر بمعونات لمنكوبى حريق الحمزاوى» .

فى هذا الأمر يقول إسماعيل باشا : «آمر بإقراض ثلاثين ألف جنيه من طرف الحكومة من غير فائدة لمدة عشر سنوات للتجار الذين أصابهم حريق الحمزاوى وتوزيعها عليهم بنسبة خسائرهم من الحريق ، حتى لا تتعطل أشغالهم التجارية مع تشكيل لجنة للاشراف على التوزيع مؤلفة من السيد / عمر الشرقاوى ومصطفى الفيومى عن الحكومة المصرية ولاوارير وشركاه ، وشارين وشركاه عن قنصل فرنسا ، وتودا رنبون وشركاه عن قنصل انجلترا ، والزيليو وشركاه عن قنصل النمسا وبوك هانسون اشتاين عن قنصل روسيا وبيانس عن قنصل إيطاليا واجتماعهم تحت رئيس مجلس التجارة بمصر وإجراء هذا القرض بمعرفتهم تحت ضمان الحكومة وتوزيع المبالغ عليهم توزيعا عادلاً» ..

وهكذا مع توليته الحكم كان يرعى دائما مصالح المصريين والأجانب على السواء بنفس القدر من العدالة والمساواة كما كان يرعى الفقراء أيضا مثل الأغنياء فكان يمِّلك الفقراء الأراضى للبناء .. وفى هذا الصدد صدر أمر كريم موجه إلى ضبطية الإسكندرية فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٦٨ م نصه :

«قد علمنا من تلغرافكم الرقيم ٩ شعبان ١٢٨٥ هـ أنكم لما أشهرتم إعطاء الأراضى إنعاما من أرض الميرى الكائنة خارج باب شرقى لمن يطلب أخذها لعماراتها كما أمرناكم شفاهة ،

تراءى لكم الهجوم على ذلك من رعايا وأجانب عامة ومعتبرين ، وبحسب ما نظر نحوه من أن الذى يطلب من تلك الأراضى كمية جسيمة تستفهمون من لدنا عما يكون فيما يذكر والذى اقتضته إرادتنا لدى البوليس المحلى لمنع الاضطرابات وقمع الاعتداءات ، فإن إجراءات البوليس غدت لا تتفق مع زماننا ، وهى أبعد ما تكون عن حماية الجالية الأوروبية بل تنقلب على العكس أداة ضرر لأمن تلك الجالية ، فمن المناسب بل أقول من الأمور الملحة ، أن تتفق الحكومة مع ممثلى الدول على التدابير التى يجب أن تتخذ ويكون من شأنها أن تحول للبوليس ـ بموافقة الجميع ـ أوسع السلطات وهى تدابير لا يمكن الوصول إلى إقرارها إلا عن طريق تنازل كل فريق عن بعض ماله .. فيتمكن البوليس من نشر الطمأنينة والسهر على الأمن العام وهى مسئولية ليس من العدل تحميله إياها فى الأحوال الراهنة وآمل أن تلبوا هذه الدعوة فتعينونا على حل هذه المسألة الخطيرة ، بمعلوماتكم القيمة وخبراتكم الواسعة» .

هكذا استمر إسماعيل فى تنظيم البوليس (الشرطة) فاستقدم الخبراء من الدول الأجنبية أغلبهم من سويسرا ليكونوا محايدين بين الوطنيين والأجانب وفوق ذلك عين فى كل من القاهرة والإسكندرية مائة وخمسين وطنيا من رجال الجيش ليتدربوا على أعمال البوليس ، وهى الأعمال التى كان يقوم بها قواصو الحكومة من الوطنيين على أسوأ وجه ، وبالفعل أدى البوليس الجديد خدمات جليلة للأمن على حداثة تكوينه .

واصل إسماعيل وضع تخطيط حديث للمدن الرئيسية كالقاهرة والإسكندرية منذ ولايته واستعان فى ذلك بأعظم المهندسين فى العالم وعلى رأسهم المهندس جوستاف إيڤل لوضع التخطيط اللازم لذلك (وهو المهندس الفرنسى الشهير الذى قام بإنشاء برج إيڤل بباريس) وقرر أن تكون القاهرة هى المركز الدائم لحكومته ـ كما اهتم بتخطيط الميادين ـ والحدائق العامة والطرق والمواصلات والمبانى العامة . ووسائل اللهو والتسلية ..

هذه نبذة قصيرة عن الدور الذى قام به فى مجال التخطيط منذ بداية ولايته وسوف نستعرض معاً على الصفحات التالية . تفصيلا وافيا عن هذا الدور العظيم الذى قام به إسماعيل لقيام هذه الدولة.

وهكذا بدأ إسماعيل مع ولاية عهده فى ١٨ يناير ١٨٦٣ بهمة وشجاعة فوطد العزم على أن يؤدى الأمانة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى عنقه إلى أن ترك الولاية وكرسى الحكم فى مصر وبصماته على مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدستورية بشجاعة وأمانة وأخلاق الفرسان وضرب المثل فاحترم الدستور والقوانين ومصلحة الشعب .



العلاقات بالباب العالى

«إننى أجارى المدنية ، وتركيا جامدة لا تتحرك .. فهل الذنب ذنبى؟ .. ليحذو الباب العالى حذوى، وليرسم السلطان المثل الذى أرسمه ، ليأمر بزراعة الأرض التى لا تستغل».

إسماعيل

القاهرة ١٨٧٠



فى هذا الفصل سوف نتطرق إلى علاقة مصر إسماعيل مع بداية عام ١٨٦٣ بالباب العالى والظلال التى أضافتها هذه العلاقة على العالم ، وأيضا علاقة مصر بالعالم وانعكاسات هذه العلاقة وظلالها على الباب العالى، فكان السلطان عبد العزيز يتتبع أخبار مصر وأخبار الخديو إسماعيل - فكان كل تقدم لمصر يزيد حقد السلطان عليها وعلى إسماعيل ، فكان يحبك المؤامرات ضده وضد مصر بالطبع من خلال البلاط ومن خلال سفراء وقناصل الدول الأوربية التى كانت تسعد لذلك ، وكانوا يزيدون النار اشتعالا .. وأيضا خلال دهاليز قصر عابدين فى القاهرة أو قصر يلدز على البسفور.. فكانت المؤامرات فى كل مكان فى لندن وفى باريس وروما وڤيينا .. وهذا ماستكشف عنه الأوراق التالية ، إلى أن وقعت مصر فى الفخ الذى نصب لها ، حتى رحيل إسماعيل عن مصر لتدخل مرحلة جديدة مخطط لها.

فنبدأ القصة من أولها مع تولى إسماعيل حكم مصر ، فى مطلع عام ١٨٦٣ ، وبالتحديد فى ١٨ يناير ١٨٦٣ ، حيث أصدر السلطان عبد العزيز فرمانا بتولى إسماعيل ولاية مصر .. هكذا كانت مصر ماتزال ولاية عثمانية تتبع تركيا ، ووقت ذلك كان سلطان تركيا السلطان عبد العزيز كما أشرنا والذى كانت تضرب العملة المتداولة فى السلطنة بأسمه فى سائر

أنحاء السلطنة ومن بينها مصر.. وعلم مصر هو نفس علم الامبراطورية أو السلطنة لتركيا الأحمر والهلال والنجوم البيضاء - ومازال - وتمنح الرتب العليا فى الجيش المصرى بموافقة ذلك السلطان ، وكانت الرتب الدنيا فى الجيش تمنح من الوالى ، لكن هذه التبعية لتركيا - كما بينا مظاهرها - لم تستطع إخفاء معالم الندية لمصر مع تركيا بعد أن ظل مركز مصر وثقلها يعتد به دوليا ، ووقفت على قدم المساواة مع كثير من الدول الأوروبية القوية . وكانت تعتبر داخل إطار المجتمع الدولى دولة عظمى - وكان من مظاهر قيمة مصر العالية ودورها الحضارى فى المنطقة وحجمها فى المجتمع الدولى أن كان يعامل الخديو إسماعيل باشا معاملة الملوك عند سفره فى زيارات إلى بلاد أوروبا الشهيرة وما أكثر زياراته - فيما سنتحدث عنها - فأحس بالحاجة إلى فك إسار علاقة سيطرة ونفوذ وولاية تركيا على مصر إلى اعتراف متبادل بينها باستقلال مصر عن تركيا ، فكلتاهما دولة صار لها هذا الوزن والثقل فى العالم وقتذاك ، ولتصبح مصر نداً لتركيا فى الصورة المفضلة لخديوى مصر مملكة مستقلة عنها بحضاراتها ومؤازرتها باقتصادياتها ورجاحة عقل ساستها ورجالها ، بل بمركز عدم المنافسة مع تركيا بهبتها وكبر مساحة دولتها . ولتحقيق واقعية هذه السياسة يجب زحزحة العلاقة بينهما عن موقف التعقيد البالغ والتركيب غير المألوف مع غيرها من الولايات التركية وتنفيذ ما يشوبها من الريبة والحذر ورفع الحساسية إلى الود والندية - وكذلك العلاقة الشخصية بين السلطان عبد العزيز والخديو التى كانت تتسم بالندية وإن كانت تحمل فى طياتها ما تحمل من غيرة ، إلا أن وسائل التقرب التى كان يقوم بها إسماعيل لبلاط السلطان بالهدايا والأكياس الذهبية تارة وتارة أخرى للوصول إلى ود دائم .

وبالفعل لبى السلطان الدعوة لزيارة مصر فى نفس العام ولبست مصر أبهى حللها واتسم الاستقبال بالأبهة والفخامة ، وازدانت القاهرة بالبيادق

والرايات، وبدت بكامل زينتها .. فعاصمة مصر تستقبل سلطان تركيا عبد العزيز لأول مرة يزور فيها سلطان منذ الفتح العثمانى لها.

وكانت هذه الزيارة تمهيدا لزيارات عديدة من اسماعيل إلى استانبول خلال الأعوام الثمانية المنتهية سنة ١٨٧٣ م ، سنة ١٢٩٠ هـ ، ومن هذه الزيارات التى قام بها إسماعيل باشا ما زالت ذاكرة التاريخ تحتفظ ببعض منها :

ـ الأولى كانت فى ٢٤ ذى الحجة ١٢٨٢ هـ (الموافق ٢٠ابريل ١٨٦٦ م)

ـ الثانية كانت فى ٧ من صفر ١٢٨٤ هـ (الموافق ١٠يونيو ١٨٦٧ م)

ـ الثالثة كانت فى ٥ من ربيع الآخر ١٢٨٧ هـ (الموافق ٤ يوليو ١٨٧٠ م)

ـ الرابعة كانت فى ١٧ من ربيع الآخر ١٢٨٩ هـ (الموافق ٢٣ يونيو ١٨٧٢ م)

ـ الخامسة كانت فى ٢٨ ربيع الأول ١٢٩٠ هـ (الموافق ١٥ مايو ١٨٧٣ م)

فبهذه الصور من العلاقات الودية السياسية والاتصال المستمر ومحاولات استرضاء السلطان واتقاء شره حاول إسماعيل باشا أن يحتفظ بسيادة مصر على ترابها الوطنى سيادة مستقلة قائمة بذاتها فليست مصر كالولايات التركية الأخرى بل كانت ذات صبغة خاصة مختلفة، تؤكد هذه الحقيقة ، كان يردده السلطان عبد العزيز نفسه بقوله : **«مصر من أصغر الولايات ولكنها تتقدم يوماً بعد يوم .. أما نحن فسقوطنا متواصل على وفرة مواردنا»**.

جاء استشعار إسماعيل باشا فهمه للمعنى القوى الخفى الذى تردد فى هذه الأقوال هو أنه كيف يتسنى فى مجال السياسة الدولية أن تظل مصر

الأقوى والأكثر ثقافة والأعلى همة ورقيا وتمكنا من العمل على التقدم والرفعة أن تكون تابعة للأضعف والذى يزداد ضعفاً ؟! وكيف يسلم ذو الهمة قياده لذى الضعف ولمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فأفرط ؟! إذ كيف يولى السلطان ، وهو أدنى منه ثقافة واطلاعاً ، الخديو إسماعيل الذى نال أعلى الشهادات ومارس الخبرات العديدة فى المجالات المختلفة ؟.. أيا كان أمر هذه الحقيقة فذلك هو قدر مصر وحظ حكمها ..

كان على الدول الأوروبية أن تستثمر علاقة مصر بتركيا وتعقيدها إلى الدرجة التى أشرنا إليها وتغذية هذه الحقيقة غير الطبيعية للتوصل إلى إضعاف مصر وتركيا معاً، وانهاء الود بينهما .. ولما كانت الحسابات تؤكد أن موعد القضاء على تركيا ـ ذلك الرجل المريض ـ أت لاريب فيه ولكن كيف ومتى ؟! فبدل أن يتحقق رويدا رويدا يجب أن يحيك ذلك لمصلحة انجلترا وفرنسا بالدرجة الأولى، وهما المتنافسان على التوسع الاستعمارى وقتذاك خاصة وكلتاهما تضع مصر نصب أعينها ولا ترضى لها استقلالاً مشرفا عن تركيا ولا تؤيده وإن استقبلت عواصم الدول الأوروبية إسماعيل باشا استقبال الملوك بينما يبدو سفراؤها باستانبول مع كل لقاء أو أستقبال له بذور الشك والريبة لدى السلطان مفتعلين معارك جانبية بينها فى إطار حروب باردة غير معلنة، بينما يدرك إسماعيل باشا حقيقة دور الدول الأوروبية بينهما، فهى تقوم بدور الشرطى تراعى حقوق مصر وتركيا فى سعيها لتحقيق وتنفيذ خططها للانقضاض على ولايات تركيا واحدة تلو الأخرى طالما يتناسب الوقت والظروف الدولية السائدة مواتية.

من هنا كان وعى إسماعيل باشا بدور الدول الأوروبية مما دفعه للحرص على علاقة الند بالند بتركيا وليوهم الدول الأوروبية بأنه يراعى الاتزان فى علاقته بكل منهما .. وكان حينذاك وزير البلاط فى القطر

السلطانى «طوب كابى» الأمير مصطفى فاضل باشا الذى كان أخاً غير شقيق لإسماعيل باشا شاغلا قلبه غيرة وتنافسا مع اسماعيل فصلته بالقصر السلطانى التركى المشهور بـ «طوب كابى» باستانبول محدودة بتصريف شئونه ، ومع أنه كان ذكيا إلا أنه يعد يافعا صغيرا انطلت عليه وعود السلطان عبد العزيز له بترشيحه صدراً أعظم (رئيس وزراء تركيا وقتئذ) رغم أن ذلك كان مستحيلا واقعيا لم يقصد به إلا الوقيعة فيما بين الأخوين (مصطفى فاضل وإسماعيل خديوى مصر الأكبر سناً منه فى حدود أيام) فكل منهما من أم مختلفة وهذا مما يزيد من شدة المنافسة وخصوصا فى أروقة القصور التى يشتد أوارها، وخصوصا عندما تدخل الحلبة زوجة الخديو إسماعيل نفسه وزوجة الوزير مصطفى فاضل حتى وان بعدت المسافة بين القاهرة واستانبول من داخل القصور البعيدة .. تتضح هذه الحقيقة من لهجة خطاب لإسماعيل ، كان قد وجهه لأخيه الأمير مصطفى فاضل يقول فيه : (إننى عليم بواجباتى نحو السلطان وحكومته ولكننى كوالى مصر لى من الحقوق مالا يكفى السماح بانتقاصها) هكذا كانت شدة لهجة الخطاب وايضا كان إسماعيل يتمزق فيما بين ولاءه لمصر وولاءه للعثمانيين .

ومن وجه حرص إسماعيل على علاقة الاتزان والتنقل بين الدول الأوروبية قام بزيارات لعواصمها نذكر منها الأتى :

- رحلة بدأت ٧ من صفر ١٢٨٤ هـ (الموافق ١٠يونيو ١٨٦٧م) الى كل من فرنسا وانجلترا.

- قام بجولة أخرى إلى أنحاء أوروبا فى ٥ من صفر ١٢٨٦ هـ (الموافق ١٧ مايو ١٨٦٩م) ووجه الدعوة إلى العديد من عظماء وملوك وأمراء أوروبا

حتى من قا رات أفريقيا وآسيا إلى زيارة مصر على مدى خمسة عشر عاماً بدأت فى عام ١٨٦٣ وقد زار مصر من العظماء كل من :ـ

ـ الأمير نابليون ابن شقيق الامبراطور نابليون الثالث عام ١٨٦٣ ميلادية

ـ الدوق دى مورين ـ الدوقة دى بارم عام ١٦٦٨ م

وبمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس تم دعوة كل من :ـ

ـ ولى عهد انجلترا وقرينته ـ عمة شاه إيران ـ امبراطور البرازيل وغيرهم من الدانمرك بإيطاليا.

وهكذا إن ذاكرة الشارع ما زالت تحتفظ بزيارات كثيرة لملوك ورؤساء كثير من الدول الأوروبية والآسيوية.

وبذلك استمرت علاقات مصر وذاع صيتها فى الآفاق البعيدة مثل القريبة ليمكننا أن نطلق على فترة ولاية إسماعيل بأنها منطلق نهضة بالمجالات الاجتماعية وإنشاء المؤسسات الدستورية والحضارية والثقافية والأدبية، فضلا عن تدعيم حركة الإصلاح والديمقراطية المصرية.

لقد نفذ العديد من المشروعات وأتى بضروب شتى من أنظمة كيانات الدولة وتدعيم مسيرة مرافقها رغم ما حاوله البعض لإثناء عزيمته عن حركات الإصلاح، وآخرون يتهمونه بالإسراف فى إقامة المشروعات فى وقت واحد على زعم أن الكثير منها أرهق الخزانة المصرية و،أثقل كاهلها .. فتلك أمثلة للمعوقات التى لاقاها إسماعيل باشا وغيرها من الاعتراضات على سياسة خلقت حقولا متناثرة من الألغام حول طريقها وجعلت اجتيازه لطرق الإصلاح الاجتماعى والسياسى مليئا بالصعوبات دون مراعاة من هؤلاء ولا تقدير للظروف التى كانت تكتنف مصر يوم ولى إسماعيل

حكمها .. وحقيقة فإن مصر ما فتئت مستهدفه إلى يومنا هذا وأن أهلها فى رباط إلى يوم الدين «صدقت يا رسول الله فى قولك هذا».

والخلاصة أن الناقدين والحاقدين أخذوا على إسماعيل طموحه المستمر فى التنافس لدرجة جعلته يطاول الزمن إن لم يسع ليطويه مسخرا له لتحقيق مصالحه وانجازاته التى لم تستغرق بضعة عشر عاما ، وتكاد تعجز الأجيال وتضيق حقبها عن تحقيق مثل انجازاته .. واذا عدنا لقراءة فصل نشأة إسماعيل لبيان عناصر الطموح ومظاهره منذ نبوغه المبكر ورعاية جده ووالده إبراهيم باشا له وفطنته وملامح ذكائه التى نمت وتطورت على ما شاهده فى المجتمعات الأوروبية وللشعوب التى اختلط بها وما لاحظه من تطبيقها مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، ورأى آثارها فى مشاركة الشعب للحكام، فى فرنسا وتطبيق نظرية فصل السلطات التشريعية منها والتنفيذية والقضائية وما أتيح له من مشاهدات بقصور فيينا وبكلية سان سير العسكرية أو دراساته الحرة للعمارة والتخطيط بكلية (البوظار) الفنون الجميلة بباريس اتضح أن كل ذلك كان نصب عينيه حين جاء واليا يحكم مصر عاقدا العزم على بناء هياكل السلطات نفسها فى مصر على مستوى أرقى مما شاهده والفصل التالى يوضح إرساء قواعد مجلس شورى النواب كمثال حى للمجالس التشريعية التى ترسى أولى لبنات العمل الدستورى فى مصر وينقل إليها تجارب فرنسا حيث تعلم والنمسا حيث شب وبانجلترا حين زار وسمع عن اصلاحات حقوق الترشيح والانتخاب أوائل ووسط القرن التاسع عشر بها واستعان إسماعيل باشا بساعده الأيمن محمد سعيد باشا زميل الدراسة فى خوض تجربة إنشاء المجلس وكانت التجربة الأولى فى الشرق الأوسط فلم تأخذ بها تركيا الامبراطورية مترامية الأطراف فى ثلاث قارات عبر أوربا وآسيا وأفريقيا .. وكذلك لم تطبق التجربة فى روسيا

رغم امتدادها لآسيا وأوربا ورغم تفوقها فى مجالات كثيرة مع علم إسماعيل أن الظروف الاجتماعية والقبلية والعشائرية لم تكن مهيئة بالضرورة لمناخ عام يبعث على نجاح التجربة بالسرعة والمعدل المتوقع المطلوب ومما رآه فى شعب مصر من إمكانيات فى خوض التجربة الديمقراطية إذ هذا كله بسلبياته وإيجابياته فلا محيص لإسماعيل من الخوض فى التجربة وهكذا ..

هكذا كان إسماعيل يخوض بمصر كل ما هو جديد وكل ما يرفع من شأن مصر لمشاركة الشعب الحكومة فى اتخاذ السياسات العامة، ولا غرو فى ذلك فقد عاش إسماعيل فى باريس ورأى بنفسه تجربة الشعب الفرنسى وتجربة الديمقراطية وانتخاب الشعب لمسئوليته هذا كله أوغر صدر السلطان من إسماعيل .. فكان هذا يعنى أنه بمبادرة مصر بإعطاء الشعب حق اختيار ممثلين أن تحذو باقى ولايات الدولة العثمانية حذو مصر فى شأن الديمقراطية والشورى.

وهكذا كان هذا بمثابة فتح الباب على مصراعيه لمزيد من المطالب الشعبية لسائر شعوب الامبراطورية العثمانية ـ وهذا ما لم يجهز نفسه له السلطان وما لم يرتب أوراقه لمواجهة مثل هذه المطالب الشعبية التى من شأنها أن تقلب الموازين هكذا كان يفكر الباب العالى و حاشيته .. فقد تعودوا على طريقة واحدة فى حكم الشعوب، وهى االقهر والظلم والسيف والكرباج والعصا لكل من يعصى أمر الوالى أو الحاكم فقد كان السلطان هو ظل الله فى الأرض ولكن إسماعيل بثقافته وعلمه وتجاربه وشجاعته كان يفكر بطريقة مختلفة تماماً.

وهكذا كانت العلاقة بين إسماعيل والباب العالى علاقة متضادة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار.. التشدد والرجعية من الباب العالى يقابلها

الحرية والديمقراطية والتقدمية من جانب إسماعيل .. ومن الخلف كان قتناصل وسفراء بريطانيا وروسيا والنمسا يوغرون صدر السلطان من ناحية أخرى ويشجعون إسماعيل على المضى فى طريقه من أجل التقدم والتحرر، ويبدو ظاهر الأمر الرحمة ولكن حقيقة الامر أن باطنه العذاب .. فهم يضعون إسماعيل فى صورة المتمرد على السلطان والخارج عن طاعته.

من ناحية أخرى كانت العلاقة تتسم بالتحدى ،، فكان إسماعيل يسعى إلى أن يستقل عن الباب العالى .. هذا يعنى فتح الباب إلى الاستقلال لولايات أخرى ... ولذلك كان الباب العالى يضع العراقيل فى طريق إسماعيل.

فكان إسماعيل يرغب فى فض هذه العلاقة من كونها علاقة سيطرة وولاية من ولايات تركيا على مصر .. وتبعية مصر لتركيا من ناحية أخرى فبالإجماع كان إسماعيل يتقرب من السلطان بغرض أن يفك أسره ويعطيه الاستقلال وأن تكون مصر مستقلة .. فى سبيل ذلك كله كان دائم الود للسلطان وبلاطه، تارة بالهدايا وتارة أخرى بأكياس الذهب، كما أوضحنا ذلك فى الصفحات السابقة، من ناحية أخرى كانت الدسائس تحاك لإسماعيل ويوشون بأن امتياز قناة السويس للشركة الفرنمسية ما هو إلا استعمار فرنسى إنتقاص من هيبتة . وبالفعل بدأ السلطان فى الاعتقاد فى هذا الرأى وهو أن فرنسا تريد تحويل مصر إلى مستعمرة .. وكان مشروع قناة السويس فى ذلك الوقت مهدداً بالتوقف والذى يستتبعه من تعويضات للشركة الفرنسية كنص العقد بين الوالى السابق سعيد، وصديقه المهندس فردناند ديليسبس. كما أوضحنا فى الصفحات السابقة، ومع كل هذه التحديات تصدى اسماعسل للحل ،على أى وجه من الوجوه .. جميع

الحلول صعبة ـ وبضغوط الباب العالى المستمرة على مصر بإيعاز من الدول الأوروبية وروسيا وعلي رأسهم انجلترا . كان بالطبع يفر ويلجأ إلى حضن فرنسا .. واتفق مع الشركة على استرداد الأراضى المصرية التى كان سلفه سعيد قد منحها إلى الشركة كما أوضحنا فى الصفحات السابقة.

هكذا جاء إسماعيل إلى الحكم فى وجود الحقد والكيد من الباب العالى ، ومع بذله المال إلى السلطان وحاشيته لكى ينتزع منهم تلك الفرمانات التى حققت لمصر ذلك الاستقلال أو كاد .. ويغفلون أن الاستقلال كان أمنيه طالما تعلل بها أسلافه، وأن رقى مصر المطرد، ولا سيما منذ تولى إسماعيل العرش، كان يزيد العلاقات بين مصر وتركيا توتراً، اذ وقفت استانبول موقف الريبة من مصر التى سبقتها فى ميدان الرقى، وكان إسماعيل على بينه.. من نوايا الباب العالى. إذ قال فى هذا الصدد فى حديث له مع قنصل فرنسا عام ١٨٧٠ أى بعد ولايته بحوالى ٧ سنوات :

«إنى أجارى المدنية الأوروبية وتركيا جامدة لا تتحرك . فهل الذنب ذنبى ! ليحذو الباب العالى حذوى وليرسم السلطان المثل الذى أرسمه ليأمر بزراعة الأراضى التى لا تستغل .. ليدخل استعمال الآلات الزراعية الحديثة ويستبدل بالانظمة العتيقة أنظمة يتناولها الرقى يوما بعد يوم ولكن تركيا لا تفعل ذلك وترانى أقوم بهذه الأعمال فتشعر بالمذلة، إن مصر عشر تركيا فى مساحتها، ومع ذلك فهى تنتج نصف ما تنتجه السلطنة».

هذا إلى أن ترتب على استضعاف السلطة العثمانية إن خضوع مصر لها أصبح فادح الثقل إذ كان على مصر فضلا على دفع الجزية أن تشترك فيما يشهر السلطان من الحروب وتساهم فيما يجرد من الجيوش لقمع الثورات ، وقد كلفها قمع الثورة الكريتية وحدها ١٢٣٣ جنيها ، ٨٨٥٠٦٢ من الجنيهات.. هكذا كان السلطان يطلب من مصر مطالب زائدة عن قدرتها

واحـتمـالهـا ـ مما سبب إنهاك قـوتهـا واستنزاف مـواردها وكل من حـول السلطان يبـتـزون مـصـر ومن ورائه كل الدول الأوروبية تضع أعينـهـا على مصر والجـميع يحيكون المؤامرات ضد مصر وحاكمها الطموح إسماعيل .. وإسمـاعيل بطموحـه فى المقابل كـان لا يسعى لأن يعلن استـقلال مـصـر ويهيئ لها سبيل التقدم والقوة

وأسلوب الحـيـاة الحـضـارى لشـعـبـهـا لتكـون مـصـر جـزءا من أوروبا .. وسـوف نمضى سويا من خـلال الصفحات التالية حول مـا حققه إسماعيل لمصر من تقدم فى مجالات الإصلاح الاجتماعى والإدارى والاقتصادى وحـجم العمران الذى تم فى عهده بالقياس لستة عشر عاما هى كل السنوات التى أمضـاها فى حكم مصر . وما حققه للسودان من تقدم وازدهار وما قام به من إلغاء الرق وبذلك يكون إسماعيل أول من قاوم ونفذ تحرير الإنسان الإفريقى وتعقب تجار النخاسة.



الشورى والديمقراطية
«مجلس شورى النواب»

«حيث إن مجالس الشورى شوهدت منافعها ومحاسنها الجليلة فى الممالك المتمدنة، كان أملى تشكيل مجلس شورى بمصر ينتخب أعضاءه من الأهالى .. فالآن أشكر الله تعالى على أن عاينت فى أهالى مملكتنا الأهلية ما يزيد الأمل فصممنا بالاتفاق على تأسيس مجلس شورى النواب»

الخديوى إسماعيل

٢٣ أكتوبر ١٨٦٦



فى الفصول السابقة ناقشنا العلاقة بين مصر إسماعيل والباب العالى وفرط الحساسية والغيرة وخصوصاً بعد الاصلاحات التشريعية والدستورية كان نصب عينى إسماعيل باشا إنشاء مجلس شورى النواب وخصوصاً بعد مشاهدة منافع المجالس التشريعية فى أوروبا سواء كان فى فرنسا التى تعلم فيها أو فى النمسا حيث شب على الطوق أو فى انجلترا التى تناهت إلى أسماعه عراقة الديمقراطية فيها. وكان ساعده الأيمن فى هذا المضمار زميل الدراسة محمد سعيد باشا، فى بعثة الأنجال الشهيرة إلى فرنسا الوزير، ورئيس الوزراء فيما بعد، ورئيس مجلس شورى النواب فى أواخر أيامه ـ وقد استعان بوضع اللوائح الخاصة بالانتخابات وضوابط التقدم للترشيح وشروط الانتخاب بالقوانين واللوائح المنظمة لذلك؛ فى فرنسا .. وفى الحقيقة كانت هذه التجربة هى الأولى فى الشرق الأوسط، وكان إسماعيل باشا يعلم حينئذ أن الظروف الاجتماعية القبلية والعشائرية لم يكن لها بالضرورة أن تفرز ما هو مرجو بالسرعة المطلوبة التى يلزم لنجاحها منح المزيد والمزيد من الديمقراطية.

وفى هذا الصدد يقول الخديوى فى أمر كريم وجهه إلى راغب باشا فى أكتوبر ١٨٦٦ : «حيث إن مجالس الشورى شوهدت منافعها ومحاسنها ينتخب أعضاؤها من الأهالى فالآن أشكر الله تعالى على أن عاينت من

أهالى مملكتنا من الأهليه والاستعداد ما يزيد حصول هذا ولأمل فصمّمنا بالاتفاق على تأسيس مجلس شورى النواب».

ووضع محمد سعيد باشا اللائحة التنفيذية للانتخاب وفى هذا الصدد لم تشترط اللائحة التى وضعها للمتقدمين لترشيح أنفسهم لعضوية مجلس شورى النواب أن يكونوا على معرفة تامة بالقراءة والكتابة واذا قارنا ذلك الشرط بما تشترطه آخر مواد اللائحة من ضرورة معرفة القراءة والكتابة للمتقدمين لترشيح أنفسهم لتلك العضوية للمجلس ابتداء من الانتخاب السابع لدورة المجلس التى تحل عام ١٨٨٤ م بعد ثمانى عشرة سنة كما تشترط شرط معرفة القراءة والكتابة لكافة الناخبين عندما تحل دورة المجلس الحادية عشرة وميعادها عام ١٨٩٦ م تقريباً وبالفعل ألقى إسماعيل باشا يوم ١٨ رجب عام ١٢٨٣ هـ (الموافق يوم ٢٦ نوفمبر ١٨٦٦ م) خطاب افتتاح مجلس النواب كان حديث مصر كلها بل كافة أرجاء السلطنة إذ كان اختيار إسماعيل باشا لهذا النظام الديمقراطى والأسلوب الحديث فى الحكم صدى بكل أرجاء العالم .. صحيح أن حكم الشورى إسلامى ولكن قد بعدت الشقة بين ما ينادى به الإسلام بشأنها ولما كان عليه الحكم منها فى صدر الإسلام وبين حقيقة الحكم التى تطبق فى البلاد الإسلامية وقت اختيار إسماعيل له.

ومهما قيل إن تجربة مصر لم تكن الأولى فى العالم الإسلامى إذ سبقتها بحوالى سبع سنوات تونس حينما منح باى تونس الشعب التونسى دستورا لم يسبقه ما يقدم له أو يمهد له السبيل ، ولم يقم على أى عرف أو قانون سابق ولا على عادة مألوفة ولا تقليد متبع، بل لقد كان الدستور نفسه برمته مما أنتجته قريحة الباى ولم يفهمه أحد من الشعب موظفا كان أو مزارعاً أو بدوياً، بل لعل الباى نفسه لم يكن يدرك تماماً ما يقوم به فبقى الدستور كما



محمد شريف باشا

وزير السودان ومؤسس النظام الدستورى فى مصر

كان يجب أن يبقى، أى وثيقة جامدة فى نظر الفلاحين وسائر الأهالى، فلم يفهموا كلمة منه تعنى الديمقراطية ولا المجلس النيابى .. على أن الحالة تختلف فى مصر إذ كان للبلاد من قديم الزمن تقاليد للشورى بل إن الحق فى الاجتماع والانتخاب والشورى لم يكن مجهولاً ولا محجوراً بل طالما كان للقرى الحق فى انتخاب مشايخ يقيدون ممثلين لها لدى السلطات العامة، مع أن هذا الحق لم يمارس لفترة سنين مضت من قبل الشعب لظروف مرت بها البلاد، فكان على إسماعيل أن يرد هذا الحق إلى أصحابه ليمارسوه بما يشبه الحكم المحلى للقرى والمحافظات بأقاليمهم - بعد أن اكتفت الحكومة بالاعتماد على من اختاره أهل البلاد.

وبمرور الوقت فى مرحلة متقدمة وسَّع الوالى من دائرة ممارسة هذا الحق إذ أخذ يدعو المتقدمين من المشايخ فى كل إقليم إلى التشاور مع المديرين فى المشروعات المقترحة للتنفيذ فى إقليمهم، بل كان الأهالى يتدارسون تقدير قيمة الضرائب المطلوبة منهم والتى تحقق جبايتها العدالة بينهم خصوصاً وأنه مرت على البلاد عدة نكبات وثورات وزلازل، كما كان فيها زيادة الفيضان للنيل وقلته فترات أخرى من القحط استمرت عدة سنوات وانتشرت أمراض فى الإنسان والحيوانات ... كل هذا حدث مع تولى إسماعيل ولاية مصر عام ١٨٦٣ م وبهذا بادر إسماعيل باشا إلى الشروع فى إنشاء مجلس شورى النواب بغرض تخصصه فى تشريع القوانين أساساً وبذلك أصبحت مصر على أول الطريق للديمقراطية الحقيقية التى ظلت أخباره تبعث الراحة بين كل الفئات والطبقات فى سائر أرجاء الوطن وبلغت قمة السعادة للشعب المصرى كله فى غضون شهر نوفمبر ١٨٦٦ ، وقد كان إسماعيل باشا من ناحية أسعد الناس جميعا بهذا المجلس الوليد، وظل يتابع أخبار الانتخابات التى تجرى بحماس بالغ بين كل فئات

الشعب الذى يدلى بصوته فى الانتخابات بمقر الدائرة المقررة .. وبقدر ما كان من بساطة الشعب الذى لم يبلغ ما بلغه مستوى الشعوب الأوروبية أدرك مصالحه ومقدراً ثقة الحكومة فيه كل هذا واستانبول تراقب من بعيد بحذر وريبة وترقب وتتمنى الفشل لهذه التجربة المصرية الجريئة الوليدة والفريدة فى وقتها وفى نوعها.

ونجد تعليقات كثير من قناصل الدول الأوروبية بمصر حينذاك تتسم بالإعجاب بتجربة إسماعيل وشجاعته ، خاصة وأن الشعب المصرى لم يكن قد تعود بعد على الاستقلال فى الرأى وحرية الكلمة ، مما قد يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه من هذه التجربة .. المهم أن الدورة الأولى لمجلس شورى النواب منذ بدئها عام ١٨٦٦ عقدت وقاد جلسات المجلس راغب باشا بحكمة .. واقتدار، يعطى أعضاءه فى أى وقت يشاء حرية الكلمة ليقدموا ما يعنّ لهم من اقتراحات، لهم السبق فى إبدائها أو تعديلات يقترحها الأعضاء كان يتم مناقشتها والتصويت عليها واقرارها حتى وإن لم تتمش مع رغبات الحكومة.

وما إن بدأت دورة المجلس الثانية ١٨٦٩ حتى كان حال الأعضاء قد اختلف عن سابقتها .. فقد أحبك تدريبهم على تقاليد الحياة النيابية وتشربوا أصولها وتقدموا فى ممارستها واستقلال آرائهم وصلابةعودهم مما كان يدعو إلى الاغتباط خاصة لدى الخديو الذى سعد بميلاد الديمقراطية الجديدة فى ولاية مصر علامة حريتها التى تنجلى فى البرلمان المصرى. وكان أحد الآراء الجريئة وقتئذ ينبعث فى صد ى الأصوات التى ارتفعت مطالبته بإلغاء الفرْدة الجماعية العامة وهى أحد أنواع ـ الضرائب التى كانت مفروضة على الشعب تحد من حركة أفراده فانطلق أعضاء مجلس الشورى بأجمعهم على الفور مؤيدين هذا الاقتراح .. وما إن تابع الخديو

إسماعيل المناقشات والتصويت وكان حاضرا هذه الجلسة ـ حتى دهش وتأثر من هذه المظاهرة غير المتوقعة وتبرم أول الأمر من هذا الاتجاه، ويبدو أنه تمالك أعصابه وأعرب للمجلس عن موافقته على إلغاء الفردة، موضحا اضطراره لتعويض النقص فى إيراد الميزانية وزيادة عوائد الدخولية بمقدار ما يعوض هذا العجز فيها.

من هنا تتبين حرص إسماعيل باشا على نجاح التجربة التى بدأها ببناء حياة نيابية فى مصر لتكون صرحاً بها للدمقراطية . أما الاستجوابات فقد استمرت تقدم إلى الحكومة بالمجلس تشمل شتى الموضوعات ومنها استجواب عن:

أسباب عدم قيام الحكومة بتشغيل بوابات القناطر الخيرية كاملة، حينما بدأت تظهر العيوب فى بعض بوابات التحكم فى تدفق المياه بعد تخزينها أمام هذه القناطر ، وقام مهندسو الرى بتجاريبهم لتفيذ ما يلزم من إصلاحات لدرء هذا الحظر.

استجواب آخر لعدم وضع طلمبات الرفع للرى فى بعض المناطق مرتفعة المنسوب للنيل.

فأيا كان أمر الاستجوابات تلك وإنكار الإدلاء بها بوحى من أفكار أعضاء مجلس شورى النواب أنفسهم والتطرق إلى القول بأنها جاءت بترتيب من أعوان الباب العالى بقصد الدس والكيد للخديوى من خارج المجلس، وهو الأمر الذى يعنى عدم كفاءة الأعضاء القيام بدورهم كممثلين لأقاليم مصر وعدم إحساسهم الكافى بنبض جماهيرها.. فجاءت كأحد صور التجربة الضرورية لرقابة المجلس الشعبية على أعمال الحكومة كحق دستورى وتؤكد أن البلاد دخلت عهداً جديداً وإن كان المناخ العام يؤكد أن



قلعة الديموقراطية فى مصر

والتى أسسها الخديو اسماعيل ووضع دوستورها محمد شريف باشا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعضاء المجلس كانوا سعداء بمجلسهم وكانوا يوقرون الوالى لممارستهم حقوقهم الدستورية تلك.

ويطالعنا فى هذا الصدد رأى معارض إذ يتردد على كتابات موغران قنصل فرنسا «إن اعضاء المجلس «شورى النواب» ما كانوا يدعون إلى الاجتماع إلا ليقروا ما كان الوالى يطلبه منهم دون أن يجرؤ أحدهم على إظهار الاستقلال فى الرأى وإن كل اجتماعاتهم كانت مظهرية».

فمهما كانت الآراء قد اختلفت حول اجتماعات أعضاء مجلس شورى النواب أو أنها كانت مظهرية أو أن استجواباتهم للحكومة لم تكن من وحى مطالبهم ورغبات من يمثلون بأقاليمهم، وفى هذا الصدد يقول نوبار باشا «إنها كانت تجربة رائدة ليست بمصر فقط بل لكل الدول الشرقية بآسيا وأفريقيا إسلامية كانت أو عربية أو غيرها ..

ومن الموضوعات التى كانت تناقش فى البرلمان (مجلس الشورى) مشاكل الزراع والزراعة .. ففى افتتاح دورة مجلس الشورى ١٨٦٩ م وفى خطاب للخديوى أوضح الأعضاء مدى استجابة المزارعين لتوصيات الحكومة بعمل مشروعات الرى من حفر آبار وتركيب شواديف وخصوصاً الأراضى المرتفعة، وبالفعل قام الفلاحون بالنشاط اللازم وقاموا بمجهودات أثبتوا بها أنهم مزارعون على درجة عالية من الكفاءة.

وهذا نص خطاب الخديوى فى حفل افتتاح دورة مجلس الشورى ١٨٦٩:

«قد أمكنا أيضا بأن ساعدنا كافة أهالى الأقاليم القبلية بتحديد ميعاد تسديد التقسيط عن الميعاد المحدد بقرار المجلس - ومع تحديد مواعيد تسديد أنماط المصلح، كما هو معلومكم ولعدم مضايقتهم وحصول المساعدة

التامة إليهم كما ذكر، قد ازدادوا غيرة واجتهاداً فى زيادة الزراعة وفى تحسين أراضيهم، حتى إن أهالى البلاد قد تبقّى بها شراقى بذلوا غاية جهودهم وزرعوا جانبا وافرا من الذرة القبارى وسائر أصناف الزراعة الممكن زراعتها، بواسطة حفر آبار وتركيب الشواديف والطلمبات وغيرها، والحق أنهم اثبتوا القول بالفعل عن الجميع بأن أهالى قطرنا حقيقة مزارعون وذوو غيرة فى السعى على معاشهم فى كافة الأحوال».



الحياة الاجتماعية ...

«عزيزى لاركنج :

أرجو منك البحث عن مدرسة لابنتى زينب هانم ، أود أن تكون بسيطة فى تصرفاتها ، ذات تربية عالية وثقافة رفيعة وتحسن التكلم بالانجليزية والفرنسية ، ويمكنها تدريس العزف على البيانو» .

إسماعيل



كان إسماعيل رجل مجتمع من الطراز الأول ، واجتماعيا بطبيعته امتداداً لآبائه محمد على وإبراهيم.... فكان قريبا من الشعب .. يحس بآلامه وأفراحه، بكل طبقات الفلاحين والموظفين والتجار والمماليك والجراكسة والمصريين المسلمين والاقباط .. وخلال هذه الصفحات سوف نستعرض بعض صور العلاقة بين إسماعيل الإنسان بالمجتمع المصرى وسوف نطالع معاً القرارات التى تنظم هذه العلاقات ، وأيضا نماذج من الخطابات المتبادلة فى هذا المجال مع استقرار حكم إسماعيل فى السنوات الأولى لحكمه بعد صدور فرمان ١٨ يناير عام ١٨٦٣ الخاص بولايته عرش مصر .. كان نصب عينى إسماعيل المساواة بين أفراد الشعب، فدراسة إسماعيل فى باريس فى أواخر الأربيعنات والخمسينات من القرن الماضى ـ القرن التاسع عشر ـ حيث عاصر تطبيقات ونظريات الثورة الفرنسية والتعرف على أفكار فلاسفتهم (مثل جان جاك روسو وموتسيكو) ونظرية العقد الاجتماعى (Conrat Social) وفصل السلطات (السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية) إذ كانت أفكار الثورة الفرنسية ما زال يتردد صداها فى أجواء باريس بل فى أجواء أوريا كلها وانتشرت إلى بقاع الأرض .. ولا غرابة فى أن يكون إسماعيل نفسه من حملة أفكارها : العدل ـ المساواة ـ الإخاء.

وكان إسماعيل ينظر إلى المجتمع المصرى بعين والعين الأخرى على المجتمع الدولى .. كانت مصر حينذاك فى منعطف خطر بالنسبة للسياسة الدولية وكأنها ريشة فى مهب الريح .. إذ كان العالم حينذاك فى منعطف تاريخى أيضا ... فبعد وفاة محمد على ترك فراغاً هائلا .. كانت كل الدول تتطلع إلى مصر ويتحينون الفرص للانقضاض عليها امتداداً لمحاولات سابقة عديدة .. كانت فى نفارين حيث اجتمعت دول أوروبا كلها من أجل القضاء على الأسطول المصرى وحرقه عن آخره وأيضا فى معاهدة لندن وفرمان عام ١٨٤٠ وتحديد حجم مصر .. والقضاء على زعامتها للعالم حينذاك ومع كل ذلك استطاع محمد على تحقيق الحياة الاجتماعية المصرية المتكاملة من مساواة بين أولاد المشايخ المصريين وأولاد المماليك وبين أولاده هو نفسه .. فكانت البعثات تضم كل هؤلاء من أقباط ومسلمين ، لا فرق بين هذا وذاك وكل هذا صهر فى بوتقة الاصلاح الشامل (يراجع فى هذه الاصلاحات مؤلفنا ـ محمد على ـ الصادر فى ١٩٩٢) هكذا استطاع إسماعيل أن يتذكر جده ووالده فى مجلسهما محاطين بكل الخبرات من بقاع العالم فيتذكر كلوت بك طبيب محمد على الخاص وباغوص بك وزير الخارجية أو وزير البلاط ومن بعده ابن أخته نوبار ـ ناهيك عن سليمان باشا الفرنساوى وسيزيرى والأن سوف نعيد عقارب الزمن الى قرن ونيف من السنين ونعيش مع إسماعيل وعائلته ونقلب فى أوراقه وخطاباته لأبنائه ومن خلال هذه الخطابات سوف نتعرف أكثر على إسماعيل ، ففى رأينا أن حياة الإنسان الاجتماعية تبدأ وتنطلق من بين أسرته .. فهيا نطالع معاً خطاب إسماعيل من مقره فى فيشى فى ٤ أغسطس ١٨٦٧ ـ الى ابنه حسن باشا ـ حسن باشا فى باريس حيث كان يدرس:

«ولدى العزيز .. وصلنى خطابك المؤرخ ١٥ يوليو الماضى ولقد سررت أيما سرور لما جاء به من تفصيلات عن سير دراستك ، ومن أنك كنت الأول بين أقرانك فى مادتى الجغرافيا

والرسم الهندسي والثانى فى باقى المواد. أعلم خير العلم أن الابن لا يستحق من أبيه العطف والرعاية إلا بقدر حبه ومثابرته على تلقى العلم. فكن على ثقة أن حنانى الأبوى عليك بازدياد توفرك على الدراسة ، فحسبك مضاعفة جهدك فى التحصيل لاستحقاق المزيد من هذا الحنان، وتقبل يا ولدى العزيز عبارات ودى الخالص»

والدك إسماعيل

وفيما يلى نص خطاب إسماعيل باشا إلى ابنه الثالث فى ترتيب أولاده حسين باشا (السلطان حسين كامل فيما بعد) وذلك فى نفس اليوم الذى أرسل فيه خطابه إلى ابنه حسن باشا:

«ولدى العزيز .. تلقيت خطابك المؤرخ يوليو الماضى ، وإنى لجد مغتبط لما ورد به ، لكنى أؤكد لك أن كتاب أخيك حسن كان آثر عندى لأنه يتضمن تفصيلات مرضية عن تقدمه فى دراسته وهى تفصيلات خلا خطابك منها كل الخلوة ولكن بما أنك تؤمل أن الجهد الذى ستبذله فى أثناء سفرى سيؤهلك لرضائى فإنى أؤمل كذلك أن أرضى لدى عودتى ، عما تكون أحرزت من التقدم أثناء غيابى.

وتقبل ولدى العزيز عبارات ودى الخالص»

والدك إسماعيل

وهكذا يظهر فرق كتابيه إلى كل من ولديه حسن باشا وحسين باشا .. ففى الوقت الذى كان فيه حسن مجتهدا كان حسين متهاوناً، فكان يحث كلا منهما على الجد طبقا لظروفه .. وأترك لك عزيزى القارئ قراءة الكتابين مرة ثانية ليتأكد لك الفرق بين هذا وذاك وكيفية المعالجة النفسية فى مخاطبته لأولاده ..

وفى خطاب آخر لابنه حسن باشا لاحق لخطابه السابق من مقره فى استانبول فى ٢٣ من أغسطس سنة ١٨٦٧ يؤكد متابعته له وتشجيعه لمثابرته فى تحصيل دروسه، وفيما يلى نص الخطاب :

«ولدى العزيز .. يسرنى دائما ياولدى العزيز أن تصل إلى تقارير طيبة عن اجتهادك وتقدمك فى كافة العلوم، لذلك لا يسعنى إلا أن أدعوك إلى المثابرة فى الاجتهاد، لتجنى الفائدة المرجوة فى إنماء ملكاتك العقلية والجسمانية ، ولتتأكد من حدبى عليك».

والدك إسماعيل

ولم تكن علاقة إسماعيل بأولاده خلال خطاباته لهم وتشجيعه إياهم فقط، بل كانت المتابعة مستمرة من خلال الديوان الخديوى ورائد الأمراء القومندان هايو وسفراء مصر لدى الدول وقناصل الدول فى مصر .. وفيما يلى نص خطاب رياض باشا إلى مستر هايو من مقره الصيفى فى استانبول فى عام ١٨٦٧ :

«وصلنى مع خطابك المؤرخ ٨ أغسطس الجارى كشف ترتيب درجات الأمراء عن شهر يوليو، وقد عرضته على مولاى ، ويتضح من هذا الكشف أن محمد باشا كان الأول بين أقرانه ، وحسن باشا الثانى وحسين باشا الأخير، وبما يتضح من التقارير السابقة أن حسن باشا كان الأول فما السبب فى هذا التغيير ؟ وكذلك؛ ما السبب فى تأخر حسن باشا كل هذا التأخير بالقياس لأخوته؟ وقد كلفنى سمو الخديو أن استوضحك الأمر».

وفى خطاب آخر من إسماعيل إلى الجنرال فلورى ، بخصوص الاهتمام ومتابعة ابنه حسين باشا من مقر إقامته الصيفى بقصر ميرجان باستنبول فى ١٤ أغسطس عام ١٨٦٨ :

«من إسماعيل إلى الجنرال فلورى كنت قد أبلغتكم قبل سفرى من الاسكندرية أن فى نيتى إرسال ابنى حسين باشا إلى فرنسا، فاسمحوا لى اليوم أن أوصيكم توصية خاصة لأنى أرغب أشد الرغبة فى أن يهتدى بإرشاد صديق حميم وها أنذا مبين نواياى :

«سأنتخب له من مصر أساتذة للغة التركية والعربية لمرافقته والإقامة معه فى مسكنه فى باريس، وأرجو أن تعينوا له رائدا لإرشاده ومراقبته على أن يكون ضابطا مثقفا، تغلب شمائله الاجتماعية صفته العسكرية فيلقن ابنى حب العمل، وليستميله إلى التضلع فى شتى العلوم، ويعلمه بانتخاب الأندية التى يرتادها تلميذه ـ كيف يتحلى بالخصال التى تكتمل بها تربية أمير فتى عليه دائما أن يحفظ مكانته فى أى مجتمع، وبديهى أن العناية بتربيته لا يجب أن يكون من شأنها صرفه عن المعلومات العامة بل ينبغى أن يقصر على تحصيلها جزءا كبيرا من وقته بأن يتلقى فى منزله جميع العلوم التى يلقنها إياه، من اختارهم له رائده من مختلف الاساتذة».

وكان إسماعيل باشا يتابع حتى الأوقات التى يقضيها أولاده فى أيام العطلات المدرسية، فى هذا الصدد نورد نص خطاب إسماعيل إلى وكيله فى لندن مستر لاركنج فى متابعته لعزم الأمير حسن على القيام برحلة فى أثناء أجازة الصيف :

«إنى أقر تماما بما ترونه فيما يختص بالرحلة التى يقترحها المستر مورى لسمو الأمير حسن فى أثناء العطلة المدرسية فإن الظروف غير مواتية فضلا عما فى هذه الرحلة من خطر ، هذا ويجب على الأمير أن يخصص رحلته للعمل، فلا يؤدى إلا الزيارات التى لا غنى عنها الضرورية جداً على الاطلاق، وأكون شاكراً للمستر مورى الذى جعل الأمير يقف عطلته على العمل الجدى، بحيث يصل إلى مصاف إخوانه».

وبالنسبة لالتحاق الأمير محمود أحد أبناء الخديو إسماعيل بالبحرية الملكية البريطانية للتدريب بها والشروط التى تضعها الحكومة البريطانية فى ٤ سبتمبر عام ١٨٧٧ ، ويؤكد على ضرورة معاملة ابنه معاملة عادية كباقى الطلبة ونورد فيما يلى نص خطابه إلى مستر فيفيان قنصل انجلترا فى مصر :

«أطلعنى شريف باشا على ما تراه حكومة جلالة الملك بالنسبة لما يشترط لدخول إبنى محمود البحرية الملكية الانجليزية لتلقى العلم، وإنى أشاطر حكومة جلالة الملك الرأى فى هذا الشأن كل المشاطرة .. كما أنى سأتخذ العدة لتلقين الأمير العلوم التحضيرية ليتمكن من اللحاق بوحدة من وحدات البحرية الملكية ، حيث يعامل معاملة التلاميذ فى تلك البحرية بلا فرق ولا تميز وإنى موقن أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتربية الأمير تربية عسكرية، تؤهله يوما لخدمة بلاده كضابط فى البحرية».

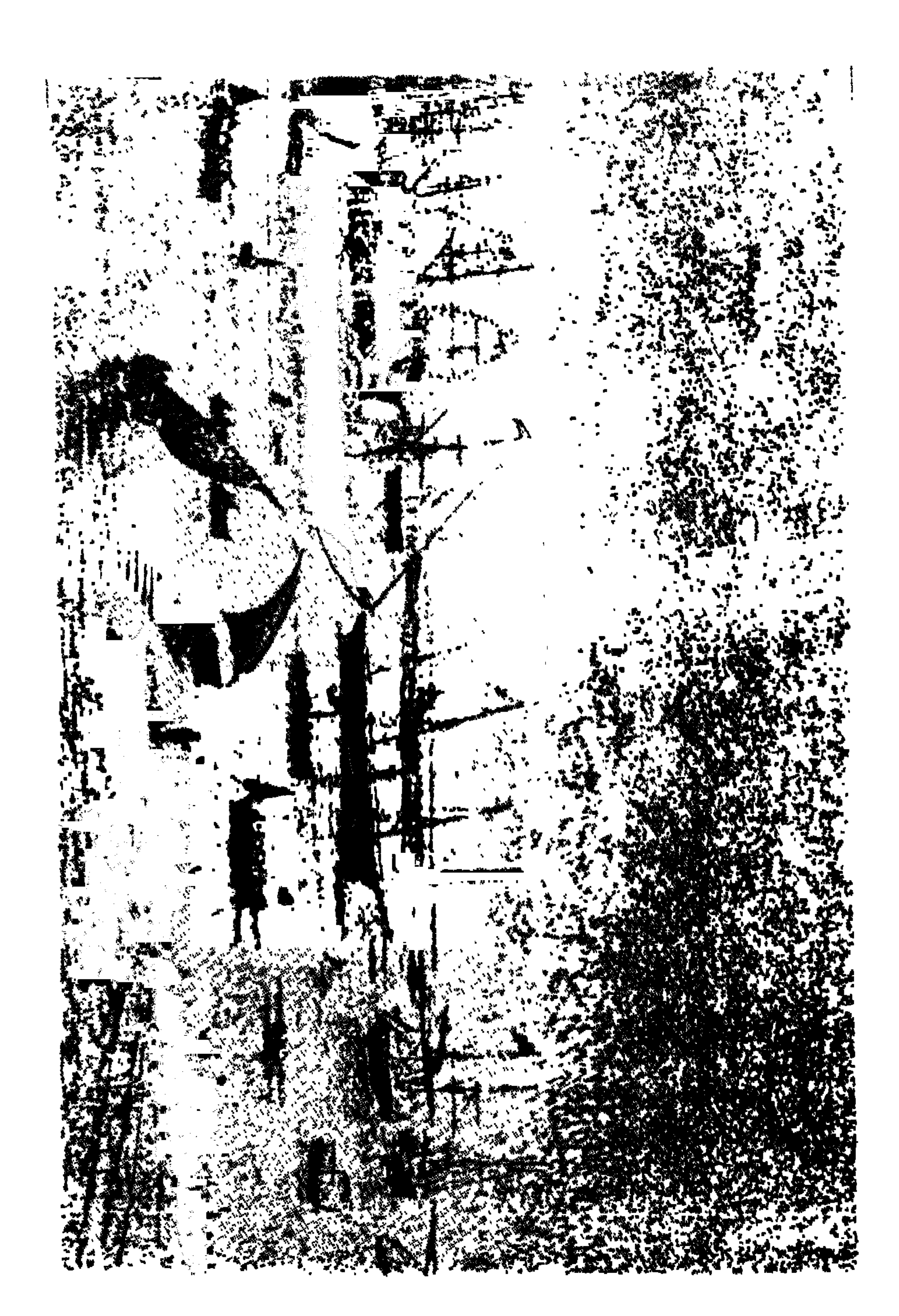
كان إسماعيل له عدة أولاد وعدة بنات ، ما زالت ذاكرة التاريخ تذكر أكبر الأولاد هو توفيق (الخديو توفيق فيما بعد) ومن بعده حسن ثم حسين (السلطان حسين كامل فيما بعد).

ومن كريمات إسماعيل زينب وفاطمة وجميلة والأميرة فاطمة هى التى تبرعت بمساحة الأراضى التى خصصتها لإنشاء جامعة القاهرة، وهى أيضا التى قامت بإنشاء كلية الآداب جامعة القاهرة على نفقتها الخاصة.

وكان اهتمام إسماعيل بتربية بناته اهتماماً بالغاً لا يقل عن اهتمامه بتربية الأولاد فكان يختار المدرسين والمدرسات بنفسه بعد استقصاء لا نظير له، وكشف لنا خطاب إسماعيل إلى وكيله فى لندن مستر لاركنج بصدد الاهتمام باختيار مدرسة لابنته الأميرة زينب، وفيمل يلى نص الخطاب :

«أرجو منك البحث عن مدرسة لابنتى زينب هانم. أود أن تكون بسيطة فى تصرفاتها، ذات تربية عالية وثقافة رفيعة، تحسن التكلم بالانجليزية والفرنسية ويمكنها تدريس العزف على البيانو».

بعد استعراضنا لحياة إسماعيل الاجتماعية مع عائلته ـ وأبنائه والمحيطين به سوف نستعرض علاقة إسماعيل بشعبه، فنقلب فى أوراق



احتفالات الشعب بافتتاح قناة السويس ـ وتظهر السفينة الايجل التى كانت تحمل الامبراطورة أوچينى زوجة الامبراطور نابليون الثالث

التاريخ لنشاهد معاً مواكبه أثناء سيره فى أنحاء القاهرة فى المناسبات الاجتماعية المختلفة من كوارث أو أحداث جسام.

فعلى أثر الزلزال الذى هز القاهرة وخرب من المبانى وخصوصاً المبانى الهالكة فى الأحياء القديمة وأضر بكثير من مآذن المساجد القديمة مما سبب ذعراً للأهالى ، وخرجوا يصلون فى الخلاء ... فما كان من الخديوى إلا أن خرج للاطمئنان على سكان القاهرة وأيضا لكى يطمئنوا ... وفى هذا المجال يرسل چورج بتلر قنصل الولايات المتحدة رسالة إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى ٢٨ يونيو عام ١٨٧٠ ونص الرسالة :

«ما كاد الزلزال ينتهى حتى اجتاز الخديو طرق مدينة القاهرة فى عربة مكشوفة ليزيل بحضوره مخاوف الشعب».

وأيضا فى أثناء فيضان النيل عام ١٨٧٥ ، كان الخديو حريصا على التواجد فى مصر وإلغاء سفره إلى قصره فى ضاحية ميرچان باستانبول لظروف مرضه بالكبد، وبقى فى مصر يعانى من الألم ...

وفى هذا الصدد يرسل بيردسلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية المصرية الرسالة التالية فى ٢٤ يونيه ١٨٧٥ :

«إن وجود الخديو بمصر فى الصيف المنصرم، وما أبداه من نشاط وعناية قد أنقذ البلد من أعظم كارثة هددته فى هذه السنوات الأخيرة وهى أخطر فيضان للنيل حدث منذ نصف قرن».

وفى هذا الصدد أرسل إسماعيل إلى إبراهام باشا مندوب الخديوى لدى الباب العالى فى يوليو ١٨٧٥ الرسالة التالية :

«من إسماعيل إلى إبراهام باشا (مندوب الخديوى لدى الباب العالى) إن بى رغبة شديدة فى الذهاب إلى استانبول كما أنى أنوى استئذان جلالة السلطان

فى أن أقضى نحواً من عشرين يوماً فى منطقة المياه للتداوى من علة الكبد وهو علاج لابد منه وقد أوصانى به الأطباء ولكن الأنباء التى أتلقاها من السودان تنبئ بفيضان عال للنيل هذا العام أيضا وقد ارتفع منسوب المياه نصف ذراع إلى اليوم بالقياس إلى العام الماضى وقد نمى الخبر إلى الأهالى وهم قلقون، وقد عزى الفضل فى التدابير الحازمة التى اتخذت إلى مقامى بمصر، ويظن الأهالى أن أوامرى لن تنفذ بما نفذت به من الهمة إذا كنت بعيداً عن القطر، فسفرى فى هذه الآونة عسير ومن شأنه أن يزيد القلق، ترون ما حدث فى فرنسا، فمع أن الماريشال ووزراءه خفوا إلى الأمكنة التى غمرتها المياه، فإن الجمهور يتهم الحكومة بأنها لم تتخذ التدابير اللازمة فى الوقت المناسب وقد جرى مثل هذا فى المجر. لذلك أرانى مضطرا إلى التفكير فى واجبى لافى صحتى، وبما أنه لابد من اتخاذ بعض الإجراءات العاجلة ، فإنه يجب علىّ أن أسافر غدا إلى القاهرة مع أن حرارة الجو تؤذينى».

١٠ يوليو سنة ١٨٧٥ (ملف ٨ / ٥٩ عابدين) ـ ترجمة

وفى أثناء الاضطرابات التى حدثت على أثر عزل بعض الضباط ننقل هذا الجزء من تقرير قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية :

«حاصرت مئات الضباط والطلبة مبنى الوزارة، وكان عدد من اقتحموه يكفى لملء غرفه الكبيرة. وقد منعوا الموظفين من مغادرته، وظلوا يهددون الوزيرين ويعاملونهما معاملة نابية.

وقد تمكن أحد الموظفين من الهرب، فأبلغ القناصل الذين يقطنون بالقرب من الوزارة الأمر، فتوجهوا إلى قصر عابدين لمقابلة الخديو وكان قد أرسل ياورا لتفريق الضباط والطلبة، ولكن الإجراء الأول لم يأت بنتيجه، فتوجه الخديو بنفسه إلى الوزارة فى عربة مكشوفة بعد أن أمر بعض الجنود

أن يتقدمه. وقد صعد أعزل إلى وزارة المالية، وألقى خطاباً بالعربية ثم بالتركية من شرفة الوزارة ، واعداً الضباط المعزولين النظر فى مسألتهم ولكنه أمرهم بإخلاء المبنى وفنائه على الفور، وكان أغلب الضباط مسلحين بالغدارات والسيوف، وتلكأ البعض فى تنفيذ الأوامر، وكانت بعض الدلائل تنبئ بأنهم ينوون الالتجاء إلى القوة فأطل عليهم الخديو مرة أخرى قائلا لهم : «هل أنتم ضباطى» ؟ فأجابوا (نعم) فقال الخديو بصوت مهيب «إن الطاعة أول واجب على الضابط فانصرفوا» وعندئذ لاح أن الخديو استرد سلطته، إذ انصرف الضباط والطلبة فى الحال وتبعهم الخديو . ولكن بينما كانت الأغلبية العظمى تستعد للرحيل، عاد بعض الثائرين ، وعلى رأسهم نفر من الشراكسة، ولم يمكن تفريقهم إلا بصعوبة لأنهم أبدوا مقاومة، فجرحوا شخصين بسيوفهم وجندياً برصاصة، فتفاقم الأمر ولما رفض الجمع الانصراف، أمر الخديو جنوده بإطلاق النار ففعلوا .. وما كان منزلى يبعد أكثر من ميل ونصف عن مختلف الوزارات لم أعلم بالأمر إلا بعد انتهائه، وحوالى الساعة الرابعة بعد الظهر مثل بعض الهيئات السياسية أمام الخديو فشكره العميد باسم القناصل والجاليات الأجنبية لتوفيقه إلى اخماد الثورة منذ نشأتها على ذلك الوجه السريع الجرئ مخاطراً بحياته، مما جنب البلاد عواقب على جانب عظيم من الخطورة».

(القاهرة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٧٩) ـ ترجمة.

وفى مجال المساعدات الاجتماعية التى كان يقدمها إسماعيل إلى الشعب ـ الفقراء منهم قبل الأغنياء ـ بدون تفرقة بين المسلمين والمسيحيين ولا تفرقة أيضا بين طوائف المسيحيين أنفسهم لا فرق بين أرثوذكس وكاثوليك وبروتستانت وروم، وحتى كان عطوفاً على فقراء اليهود.

وكان أول أمر صدر من إسماعيل بعد تولية ولاية مصر، خاص بالمساعدات للفقراء ـ لكل الفقراء على أرض مصر فى الكتاتيب والأضرحة والأوقاف الإسلامية وأيضا إلى (مكاتب) مدارس فقراء الأرثوذكس والكاثوليك وكافة الطوائف الدينية المقيمة فى مصر، وكان قدرها ألفى كيس أى حوالى عشرين ألف جنيه .. وفيما يلى نص أمر الخديو إلى نظارة الأمور الخصوصية الديوان الخديوى الصادر فى ٣٠ يوليو ١٨٦٣ أى بعد أقل من ستة شهور من ولايته :«أمر كريم إلى نظارة الأمور الخصوصية . حيث سمحت ارادتنا بصرف ألفى كيس لتوزيعها على المكاتب (المدارس) والفقهاء والأضرحة وغيرها بمصر والاسكندرية فيقضى صرف ألف ومائتين وثمانين كيسا من ذلك إلى أدهم باشا ناظر ديوان الأوقاف والمدارس ليجرى توزيعه بمعرفته إلى من صدر له أمرنا فى تاريخه بإعطائه لهم و مبلغ السبعمايه والعشرين كيسا تجرون صرفه للخواجه مكسموس سكاكيني ليجرى توصيله إلى الجهات الموضح بيانها بالبوصلة المرسلة من طيه ويصير توريد المبلغ جميعه فى باب الاحسانات كما اقتضت مكارمنا على الجمعيات الخيرية».

وهكذا كان إسماعيل لا يفرق بين مسلم ومسيحى أو حتى يهودى وهذا ما يؤكده مسيو اوكتاف شاسو بعد زيارته لمصر فى عام ١٨٦٨ إبان حكم إسماعيل ـ وذلك إلى وزير معارف فرنسا يقول التقرير :

«ليست رعايا مصر من المسلمين فقط، فمن أهلها عدد غير يسير من المسيحيين الأقباط، وإنها لمناسبة للتنويه بالتسامح الدينى فى أنحاء القطر المصرى، والرفرف على الجميع دون استثناء ، مما يشرف قوانين البلاد وشمائل أهلها».

وأيضا فى هذا المجال وحقوق الأجانب فى مصر فى عهد إسماعيل فى ١٩ يونيو ١٨٩٦ ومنحهم الامتيازات طبقا للحدود التى رسمتها لهم المعاهدات يقول اللورد بلور فى كتابه إلى وزارة الخارجية الانجليزية :

«فى عهد سعيد كان اختلاط الحال ضاربا أطنابه فكل يفعل ما يشاء، ولم يحاول أبداً تحديد سلطة الحكومة وواجبات الأجانب فعمل إسماعيل باشا على دعم سلطة الحكومة، وعلى وقف الأجانب عند الحدود التى رسمتها لهم المعاهدات ، وقد نتجت عن ذلك منازعات مختلفة، ويؤسفنى القول أن السياسة التى اتبعناها إلى اليوم، أغضبت الوالى والحكومة علينا، دون أن تزيد أى زيادة فى مهابتنا وسلطتنا. وليس الوالى ـ على ما أعلم ـ برجل يميل إلى العنف أو المحاباة أو لا أظن من العسير أن نتفق معه على جميع هذه المسائل، ويبدو أنه مستعد لمنح الأجانب امتيازات جديدة، بل منحهم نفس ما للوطنيين من الحقوق بما فيها حق امتلاك العقار.

وبالفعل منح إسماعيل رئيس أساقفة اللاتين بمصر، قطعة أرض كبيرة فى موقع ممتاز، وفى هذا يشهد بوجاد قنصل فرنسا فى رسالة منه إلى وزير الخارجية الفرنسية : «كان سموه قد منح رئيس أساقفة اللاتين فى مصر قطعة أرض مساحتها ٣٥٠٠ ذراع فى موضع حسن جدا حتى الآن سيادة المونسيور سرسيا قد تلقى عرضا بشرائها بمبلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك تدفع نقدا إذ يعلم صاحب العرض أن هذه الأرض ستساوى عما قريب ضعف هذا المبلغ وعند وصولى إلى مصر منح الوالى الراهبات إعانة سنوية قدرها ٦٠٠٠ فرنك بناء على رجائى ، ليستأجرن دارا يقمن فيها مدرسة مجانية ، وفى هذه الأيام الأخيرة طلبت من سموه بمناسبة زواج كبرى كريماته ، تمليكهن دارا، فأعطى أرض مساحتها ٤٠٠٠ ذراع وتبرع بمبلغ ٥٠٠٠ فرنك نقدا، وتقدر هذه المنحة بأكثر من ٢٠٠٠٠٠ فرنك فى جملتها ، وليست هذه المبرة آخر مبرات سموه» .

وبالفعل منح الوالى رئيس أساقفة اللاتين أرضا إضافية مساحتها حوالى ٦٠٠٠ ذراع فى أجمل موقع فى القاهرة. فى هذا الموضوع حرر بوجاد



الحفل النسائي للاحتفال بافتتاح قناة السويس

قنصل فرنسا الذى جاء ذكره من قبل إلى وزير خارجية فرنسا يقول : «يشرفنى أن أبلغ سعادتكم أن الوالى منح رئيس أساقفة اللاتين مُنحة أخرى، وهى أرض مساحتها ٦٠٠٠ ذراع فى بقعة من أجمل بقع القاهرة، لبناء ديروكنيسة، ولا شك أن رغبة سموه فى أن يظهر للامبراطورة عند مجئ جلالتها إلى مصر - فى حفل افتتاح قناة السويس ما تختص بها الديانة الكاثوليكية من حماية كان لها أثرها فى أتخاذ هذا القرار وهو قرار سيتقبله القاصد الرسولى ببالغ الامتنان».

وكانت قمة الأحداث الاجتماعية، والتى كانت ذات صدى عالمى، التى فجرها إسماعيل هى الاحتفالات التى واكبت افتتاح قناة السويس لحركة عبور السفن العالمية بين الشرق والغرب - كانت هذه الاحتفالات حديث العالم كله، إذ كانت محور حديث المجتمع الدولى العالمى والتى أكدت أنه رجل مجتمع من الطراز الأول.

كان إسماعيل باشا يسير فى كل المحاور التى يكمل بعضها البعض، من أجل دفع عجلة التنمية فى مصر لتكون قطعة من أوربا، حينذاك كانت أوربا هى القاطرة التى تحث العالم خلفها من أجل الحضارة والثقافة والتنمية وكان إسماعيل حقيقة ابن هذه الثقافة والحضارة فاستطاع أن يكمل مشوار جده محمد على فى غرس بذور الحضارة فى مصر، وبالفعل كانت هذه المناسبة هى بمثابة تفجير للطاقات الكامنة فى الشعب المصرى وأيضا الطاقات العالمية، من أجل الفنون المعمارية والفنون التشكيلية والموسيقية ، وأيضا فى كل مجالات الفكر العالمى الحديث، كانت هذه المناسبة هى احتفالات افتتاح قناة السويس والتى حدد لها تاريخ سابق، يتناسب مع الانتهاء من المشروع فتم التخطيط للاحتفال بهذا الحدث التاريخى والتى أثبتت الأيام ضخامة هذا المشروع وأهمية هذه المناسبة لذلك كان بالطبع ، بل ومن الضرورى افتتاح بعض المشروعات الثقافية والفنية فى إطار الحياة

الاجتماعية التى تؤكد مظاهر المدنية والحضارة ، قبل ذلك بشهور فكان مشروع مسرح (الكوميدى) بالأزبكية والذى بدأ إنشاءه فى نوفمبر عام ١٨٦٧ والذى تم إفتتاحه قبل حفلات قناة السويس بحوالى عام فى يناير سنة ١٨٦٧ ، ثم تم افتتاح الأوبرا فى زمن قياسى إذ تم الانتهاء من إنشائها فى خمسة شهور ذلك مع احتفالات الافتتاح، وقد بلغت تكاليف إنشائها حينذاك ١٦٠ ألف جنيه، ومثلت فيها مساء ليلة ٢٩ نوفمبر عام ١٨٦٩ أول أوبرا وكان إسمها «ريجوليتو» وقد كانت فى مقدمة من شهدوا الأوبرا فى هذه الأمسية الامبراطورة أوچينى عقيلة نابليون الثالث امبراطور فرنسا، وهكذا ظلت الاحتفالات فى مصر كلها قرابة أربعين يوماً كلها مهرجانات واحتفالات وزينات وكانت مراسم حفل الافتتاح طبقا لتنظيم ونظام دقيقين فيما بين مدن القناة الثلاث، بورسعيد والاسماعيلية والسويس، وأيضا العاصمة المحروسة القاهرة .. وأيضا فى ثغز الاسكندرية.

ولبست مصر أبهى حللها ... خلال أيام وليالى الاحتفالات التى استمرت لأكثر من أربعين يوما وليلة كأنها عروس لم يشهد العالم احتفالا من قبل فى مثل هذه الفخامة والأبهة، لعظمة هذه المناسبة.

كانت بداية مراسم الحفل الرئيسى لافتتاح القناة فى يوم ١٦ نوفمبر عام ١٨٦٩ على ضفاف القناة وبالتحديد على ربوة مرتفعة تطل على القناة من الناحية الشرقية وتطل على بحيرة التمساح من الناحية الشمالية وهى ما تسمى حاليا (بمنطقة نمرة ٦) . وقد تم عمل ثلاث خيمات شرقية ، ولكنها ذات لمسات أوروبية تتناسب مع عالمية المناسبة ومكانة ضيوفها.

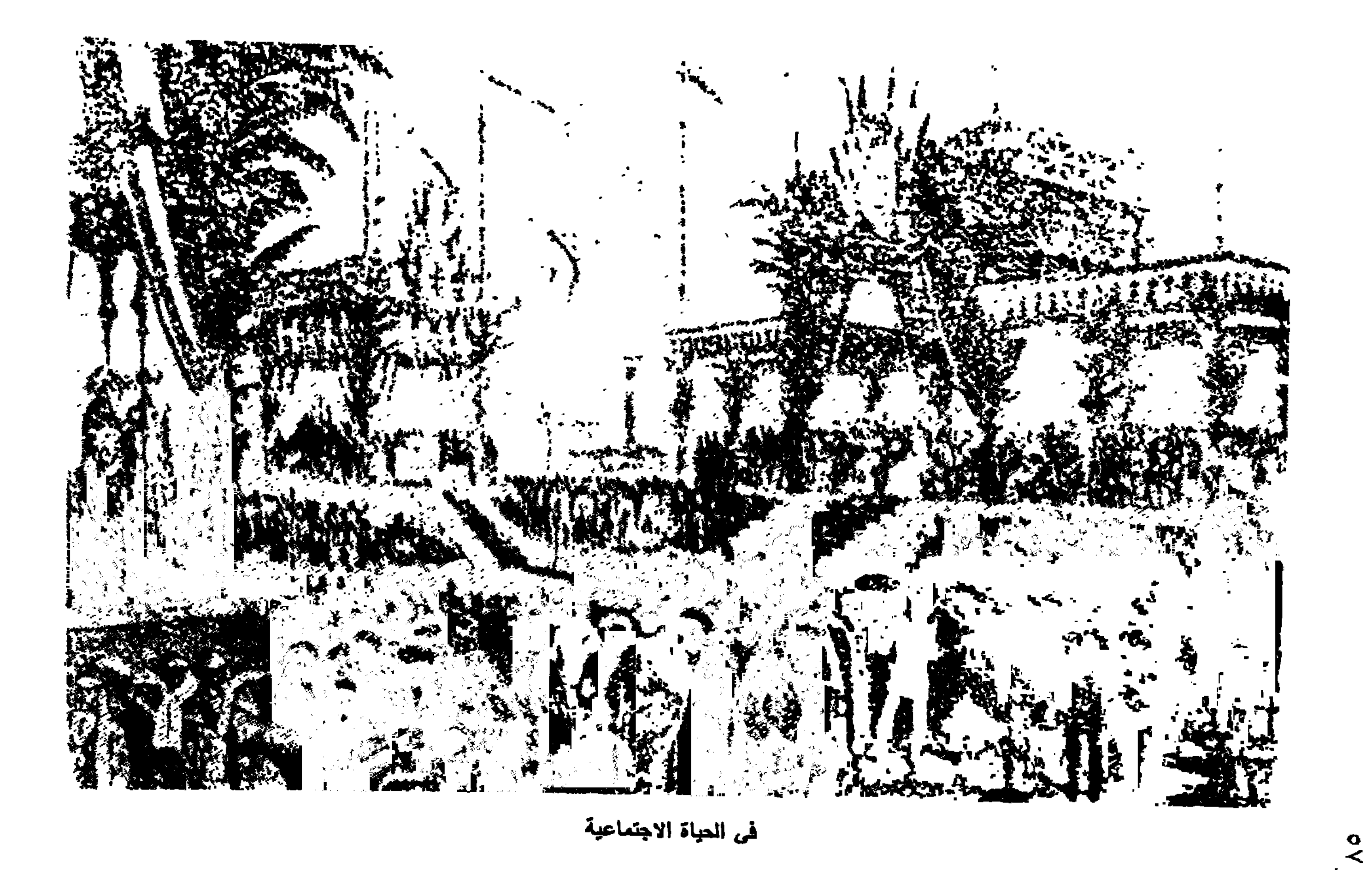
الخيمة الأولى ترتفع على المنصة الرئيسية مخصصة للملوك والأمراء وكبار الضيوف المدعوين، والخيمة الثانية مخصصة لرجال الدين الإسلامى، والثالثة مخصصة لرجال الأكليروس الفرنسيين.

كان هذا بمثابة الحفل الرسمى لإلقاء الكلمات من الخديو والضيوف وكلمة مهندس المشروع (فرديناند ديليسبس) الذى كان على رأس المدعوين - وقد القى الشيخ إبراهيم السقا كلمة تبريك باللغة العربية ثم تلاه المونسينور بوير واعظ نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى جاء خصيصا من فرنسا لحضور الافتتاح وألقى خطبة تبريك باللغة الفرنسية.

وفى صبيحة يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ كان الافتتاح الفعلى للقناة للملاحة ، حيث دخلت بواخر الملوك والأمراء، وكانت السفينة (ليجل) (L'Aigle) النسر الذى تقل الامبراطورة الفرنسية.

وفى مساء ليلة ١٨ نوفمبر عام ١٨٦٩ تم اعداد الموائد لحفل العشاء الساهر الذى أقيم فى الاسماعيلية أيضا - لآلاف المدعوين - وكان يتصدر المائدة الرئيسية الخديو إسماعيل والامبراطورة أوچين قرينة نابليون الثالث امبراطور فرنسا - وكان على رأس المدعوين فرانسوا چوزيف امبراطور النمسا والأمير فردريك ويلهلم ولى عهد روسيا، والامير هنرى شقيق ملك هولندا، والأميرة قرينته، والسير هنرى اليوت سفير انجلترا فى الاستانة والسيدة عقيلته الليدى اليوت والجنرال اجناتيف سفير روسيا فى الآستانة وقرينته، والكونت اندراس من وزراء النمسا والبارون بروكش سفير النمسا فى الآستانة وعديد من الشخصيات العالمية.

ومن الشخصيات المصرية كان الامير محمد توفيق باشا ولى العهد والأمير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا والى مصر السابق، والوزراء المصريون على رأسهم شريف باشا وزير الخارجية وشاهين باشا وزير الحربية والبحرية، ورياض باشا خازندار الخديو - ومن الزعماء العرب الأمير عبد القادر الجزائرى.



فى الحياة الاجتماعية

فى هذا اليوم الحافل تم إعداد حفل عشاء كبير فى مدينة الاسماعيلية لضيوف الخديو فى قصره الذى يطل على بحيرة التمساح والذى أنشئ خصيصا فى مدينة الاسماعيلية لهذه المناسبة، وتلى هذا العشاء حفل راقص سمى (البللو)* ضم كل الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة. حيث رقص الجميع مع أنغام الفالس والتنجو وكان الحفل حلما للجميع مضوا يتذكرونه بقية حياتهم ذهب كل ذلك من احتفالات ، إلا أن ذاكرة التاريخ لن تنسى هذا الحدث الأسطورى الفذ الذى صاحب افتتاح قناة السويس نفسها المعبر الملاحى الاقتصادى العالمى الذى كان شاهدا على الأحداث الجسام فى المنطقة من حروب وتحولات تاريخية، وما زالت القناة بدخلها تمثل صمام الأمان لمصر وأبناء مصر.

وفى مجال افتتاح قناة السويس تم إنشاء مؤسسات عديدة فى مصر وكثير من المشروعات وعلى رأسها قصر عمر الخيام (فندق ماريوت حاليا) وقصر مينا بالهرم (فندق أوبروى مينا هاوس حاليا) وأيضا أوبرا عايدة وإن كانت لم يتم عرضها مع افتتاح القناة والأوبرا ، إذ أن عرضها كان يستلزم دراسات وترتيبات قبل افتتاحها وفى هذا الصدد عهد الخديو إلى فردى الموسيقار الإيطالى الشهير بوضع الموسيقى لأول أوبرا مصرية تمثل على مسرح الأوبرا وقد قام بوضع موضوع وسيناريو قصة عايدة عالم المصريات ماريت ** باشا وهى على إسم أميرة مصرية بطلة قصة مصرية قديمة تم استخلاص تفاصيل أحداثها من البرديات ... من الأدب الفرعونى القديم.

---

* البللو كلمة تعنى الحفل الراقص باللغة الايطالية ومنها أصبحت هذه الكلمة تعنى الضجيج فى اللغة الدارجة بين المصريين.

** قبر ماريت جثمانه فى حديقة متحف الآثار المصرية بميدان التحرير

ومثلت أوبرا عايدة بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ كما أشرنا ، أى بعد احتفالات الافتتاح بعامين ونال العرض نجاحاً عظيما ، وكان يشارك فى العرض بعض العناصر المصرية بالإضافة إلى العناصر الإفرنجية ، وبذلك كانت هذه الأوبرا هى أولى التجارب المصرية فى هذا المجال، وأول احتكاك مصرى بالفنون العالمية من تمثيل وموسيقى وأداء وديكور وباقى الفنون التشكيلية ..

وهكذا كان إسماعيل رجل مجتمع من الطراز الأول واجتماعيا بطبيعته حتى النخاع.



التعليم والثقافة

«وقرر إسماعيل أن يعطى المرأة حقها فى منافع التعليم ... لقد أنشأ فى القاهرة أول مدرسة للفتيات ... وهى أول مدرسة من نوعها تأ فى الشرق.

ولا شك أنه ليس من اليسير تبديل الحالة الاجتماعية للمرأة الشرقية، وتحريرها من العبودية المنزلية ولكن الخديو قد عقد العزم على ثورته الاجتماعية والانطلاق إلى المدنية الحديثة»

بيردسلى

قنصل الولايات المتحدة فى مصر



جاء إسماعيل إلى الولاية بعد عباس حلمى باشا ومحمد سعيد باشا كان عباس حلمى قد قام بإغلاق العديد من المدارس التى أنشأها محمد على ، وحدد أعداد التلاميذ والقبول بالمدارس، واضطهد رفاعه رافع الطهطاوى ، والذى أوكل له خطط التعليم وأول مدير لمدرسة الألسن . ومن بعد عباس حلمى باشا جاء محمد سعيد الذى ترك الحال على ما هو عليه بدون أى فكر أو تطوير أو تقدم ، المهم أن إسماعيل جاء حاكما لمصر ولم يكن باقيا من المدارس العالية إلا مدرسة الطب والصيدلة والولادة وقوامها ٦٩ طالبا، والمدرسة الحربية بالقلعة السعيدية، وقوامها ١١٦ طالباً، فأدرك إسماعيل أن البداية الحقيقية لمستقبل هذه البلاد لا تكون إلا بالتعليم، فأعاد فتح المدارس التى أغلقت وتوسع فى مراحل التعليم الابتدائى والأولى، والمكاتب (الكتاتيب فى القرى) والنجوع وأعيد تنظيمها ، وكذلك قام بإصلاح الأزهر الشريف وأنشأ المدارس العالية (الكليات) وأنشأ أقساما للمحاضرات العامة الدورية .. وبالنسبة لتعليم البنات قام إسماعيل بدور رائد فى الشرق لتعليم البنات كما اهتم بالتعليم الأوربى وأدخل تعليم اللغات ، وشجع الإرساليات على فتح المدارس على النظام الاوربى مثل مدارس الفرير والجوزويت والليسيه، وخصص لهم الأراضى بالمجان وخصص مساحة للجامعة الامريكية التى أقيمت فيما بعد واهتم بالبعثات وأرسل العديد من الطلبة إلى

كل الدول الأوربية فى التخصصات المختلفة لملء الفجوة واستكمال النقص والقصور الذى حدث فى ولاية كل من عباس وسعيد.

وفى هذا الصدد سوف نطالع معاً رسالة إسماعيل إلى الصدر الأعظم فى ١٨ أغسطس عام ١٨٦٩ :

«إن تقدم المدنية أدى إلى رقى العلوم وانتشار المعارف لذلك أعدنا فتح المدارس التى كانت قد أغلقت ، وكان بعثها من لدن الحضرة السلطانية وأنشأنا معاهد جديدة وجميع هذه المؤسسات منظمة تماماً على تعددها وتنوعها .. وقد أوفدنا البعثات إلى جميع أنحاء أوروبا ليضطلع أعضاؤها فى العلوم والآداب والفنون والصناعة، كل ذلك مما بدأت البلاد تجنى ثماره .. وتدل هذه الاعمال على تقديرنا للعلم، وهو أول أساس لكل تقدم».

وسوف نطالع معاً عزيزى القارئ اهتمام إسماعيل بالتعليم خلال الرسائل وتقرير القناصل المتداولة خلال عهد إسماعيل..وفى هذا الصدد يقول تقرير مسيو أوكتاف شاموال إلى وزير المعارف الفرنسى فى يونيو عام ١٨٦٨ : «إن مهمة المضى فى تحقيق المشروعات العظيمة التى وضعها محمد على ، قد آلت اليوم إلى إسماعيل وهو مهتم بها اهتماماً خاصاً على ما يلوح وإذا كان تنفيذها لا يظهر دائما بالسرعة التى يتمناها البعض وأولهم الوالى نفسه فلا أقل من تقدير الروح السمحة، التى تحفزه إلى أن يحقق لمصر التقدم الفكرى والأوروبى مع رقيها المادى، إن إعادة التعليم الأوروبى إلى مصر مما يشرف الوالى الحالى. فمنذ تولى الحكم وهو يقيم الدليل على رغبته الحارة فى إعادة المنشآت النافعة التى أسسها جده العظيم، ولئن قام من العقبات العارضة ما قد أعاق أحيانا تنفيذ مشروعاته ، فلم يعدل عن واحدة منها وإن تحقيقها لمسألة وقت ليس إلا».

وفى مجال مساعدة بطريركية الأقباط فى مساعيها للتعليم، أصدر إسماعيل أمره الكريم إلى نظارة المالية الصادر فى ٢١ من رجب ١٢٨٣ هـ

الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٦٦ م يقول : «إنه نظرا لما اتضح لنا من حصول السعى والاجتهاد من بطرخانة الأقباط فى استعداد وانتظام مكاتب ومدارس، وإيجاد معلمين بها لتعليم الأطفال ما يلزم من العلوم واللغات الأجنبية ونحو ذلك وسعيها فى هذا النوع أوجب الممنونية عندنا، لأجل مساعدتنا على ذلك وتوسعة دائرة التعليم الجارية بمكاتبها، قد سمحت مكارمنا يالإحسان على تلك البطركخانة بخمسائة فدان عشورية من أطيان المتروك والمستبعدات الموجودة بالمديريات على ذمة الميرى وأصدرنا أمرنا فى تاريخه لمفتش عموم الأقاليم بتحديد ذلك المقدار للبطركخانة المرموقة، وإرسال قوائم تحديده لطرفكم لإجراء اللازم نحو استخراج التقسيط به باسم البطركخانة المذكورة، فلزم إصدار هذا لكم بذلك لتعلموه وتجروا مقتضاه».

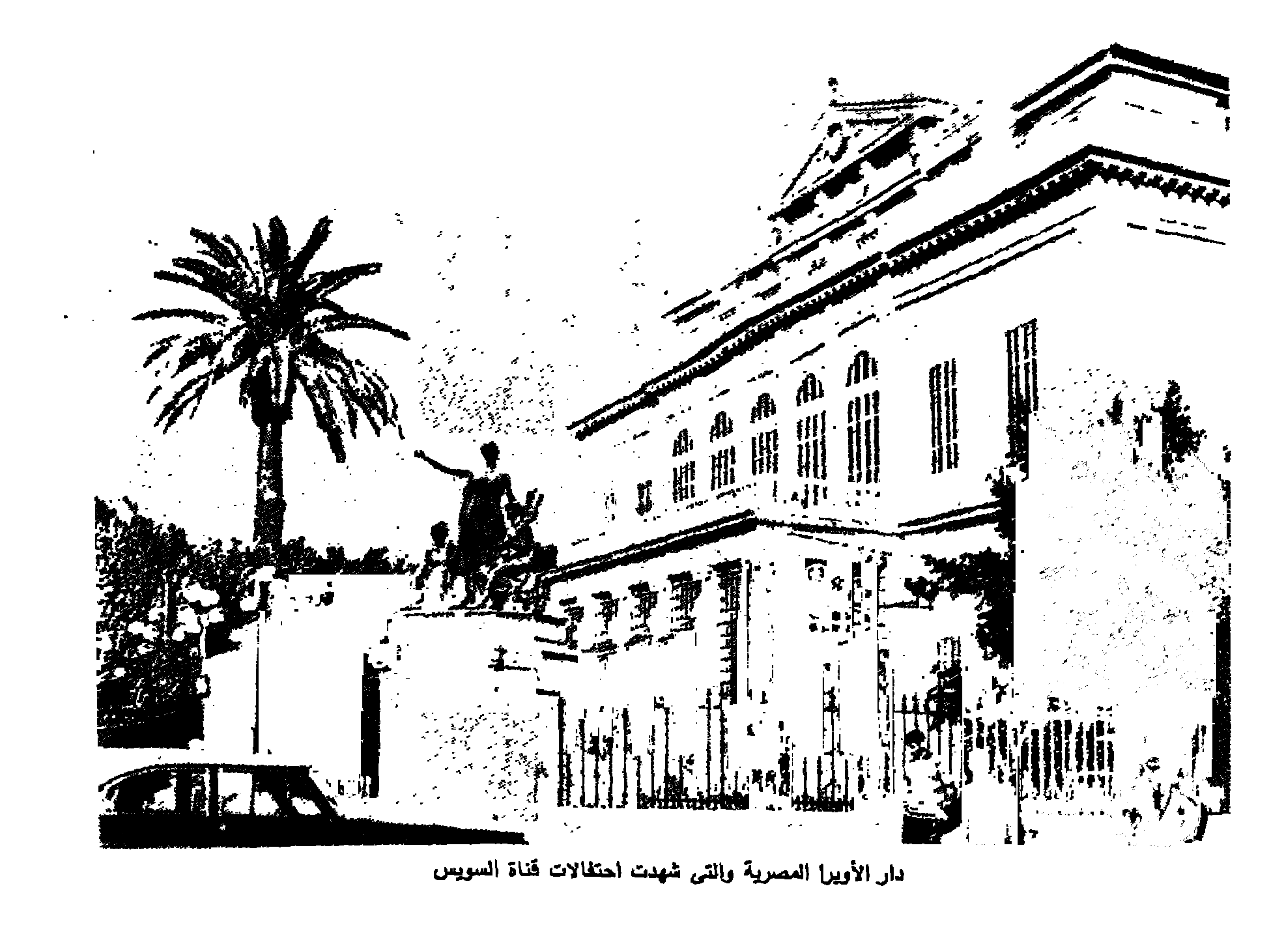
وفى مجال اهتمام إسماعيل بالكتاتيب أو المكاتب الأهلية:

صدر الأمر الكريم فى ٢٠ ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ١٠ يونيو ١٨٧١ م إلى الداخلية : «حيث أنه من الأمور الخيرية انتظام واستعداد المكاتب الأهلية (الكتاتيب)، ومن المعلوم أن دوام إقامة شعائرها (يقصد قيامها بتقديم العلم وتحفيظ القرآن) وعماديتها يستلزم تعيين إيرادات تكون مستمرة ومخصصة على ذمتها، وتصرفها فى لوازماتها، فلأجل الحصول على هذا الأمر الخيرى ، ودوام وجود المكاتب المذكورة بحالة الاستعداد والعمارية، اقتضت إرادتنا أن يخصص لها عشرة آلآف فدان من أطيان الميرى زيادة على المديريات، بحرى وقبلى ثم عشرة آلف فدان أخرى من الأطيان الأواسى المحلولة التى آلت الآن أو تؤول فيما بعد للميرى من الآن، ما عدا ما يكون منها ما أضيف بالزمام. وكلما تحدد من هذا وذاك يجرى تحرير تقاسيطه وإيقافه من عندنا عن المكاتب المحكى عنها، لأجل أن يكون ايراداتها تصرف مستغلاته فى استعداداتها ، كما أنه من حيث

يلزم جملة مصاريف إلى المباني اللازم إنشاؤها للمكاتب المذكورة في الجهات، فاقتضت إرادتنا أن ساير الأملاك التي تكون آلت إلى بيت المال حتى الأن هو من حقوقه الصريحة يجرى إعطاؤها إلى المكاتب الأهلية لإجراء مبيعها بمعرفة ناظر الأوقاف، وصرف أثمانها في المباني اللازمة إلى المكاتب السالف ذكرها ثم ولأجل التيسير من الآن في مباشرة إدارة المكاتب المذكورة وعدم تأخير ذلك، انتظاراً للاستحصال على إيرادات الأطيان، والأملاك المذكورة، فقد تبرعنا بمبلغ ٧ آلاف كيس يصرف من خزينة المالية إلى أوقاف المكاتب الأهلية، في ظرف سنة من الآن شيئا فشيئا، للاستحصال بذلك مباشرة إداراتها وأشغالها من هذا الوقت وقد صدر أمرنا الكريم بهذا لناظر المالية وتصرح بتوكيله منا في إيقاف الأطيان، وأعطى الأملاك المحكى عنها على الوجه المشروح ، كما أنه صدر أمرنا عن ذلك إلى ناظر عموم الأوقاف ولأجل معلومية واذكر بالداخلية لزم إصداره لكم بالاشعار».

وكذلك أوقف الخديوى إسماعيل أراضى تفتيش الوادى للمدارس ومساحة هذه الأراضي ٢٢٠٠٠ فدان ولا يقل دخله حينذاك عن ٥٠٠٠٠ جنيه سنوياً

وفي مجال المدارس العالية التي أعيد تنظيمها في عهد إسماعيل ، مدرسة الطب، إذ بلغت هيئة التدريس فيها أربعة عشر مدرساً كلهم من المصريين وهؤلاء كانوا خريجي البعثات التي أوفدها محمد على باشا ـ وكانت رياسة مدرسة الطب معقودة للمصريين إلا في فترة وجيزة في أول عهد إنشاء المدرسة، وكذلك اهتم بمدرسة الهندسة أو المهندسخانة، ووصل عدد هيئة التدريس فيها إلى خمسة عشر مدرسا لم يكن بينهم إلا ثلاثة من الأجانب على الرغم من أن برنامج المدرسة يشمل تعليم اللغات الانجليزية والفرنسية والتركية والالمانية.



دار الأوبرا المصرية والتى شهدت احتفالات قناة السويس

وفى نفس الوقت استحدث إسماعيل مدارس عالية جديدة ، كانت الأولى من نوعها فى الشرق وعديد من الدول الأوربية، منها مدرسة الفنون والصناعات وافتتحت عام ١٨٦٧ وكان مقرها فى حى المصانع وكان االتعليم فيها عمليا محضا ومدرسة الألسن والإدارة لتخريج المترجمين والمحامين وقد حلت محلها مدرسة الحقوق والإدارة.

وقد تم افتتاح مدرسة المحاسبة والمساحة عام ١٨٦٨ م لتخريج المحاسبين والمساحين ورؤساء الأعمال. ومدرسة الإيچبتولوچيا وهى مدرسة المصريات أو اللغات القديمة وافتتحت عام ١٨٦٩ لتعليم اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) واللغة الأمهرية (الحبشية).

وكذلك إنشاء مدرسة دار العلوم ، وهى كلية دار العلوم الحالية وهى التى تخرج منها أجيال وأجيال من المدرسين والعلماء. وافتتحت هذه المدرسة عام ١٨٧٢ م.

وكذلك إنشاء مدرسة فلاحة البساتين ومدرسة الرسم .. علاوة على العديد من المدارس والمعاهد.

ومن المؤسسات التى اهتم إسماعيل باصلاحها الأزهر الشريف، فوضع النظم واللوائح بما يضمن حسن سير التدريس ،، بداية بتقييم الأساتذة، ويمتحن من يرغب فى التدريس لكى يساير الأزهر التطور الذى طرأ على العالم وكذلك على راحة الطلبة، ووضع كل الإمكانيات تحت طلب للأزهر وشيوخه .

وفى هذا الصدد هيا نطالع معاً عزيزى القارئ الوقائع المصرية العدد رقم ٤٤٤ الصادر فى ٤ ذى الحجة عام ١٢٨٨ الموافق ١٣ فبراير عام ١٨٧٢ .

إصلاح الأزهر الشريف

«من المشاهد الذى لا تخفى ولا تضيع عند من يعلم السر وأخفى ، اعتناء جناب الحضرة الفخيمة الخديوية بشأن السادة الكرام الأزهرية ، وزيادة إعزازهم وإكرامهم وامتيازهم وتوجيه نظرة إليهم وإقباله بكليته عليهم، حتى أن حضرة مولانا الغنى عن ذكر صفاته السامية شيخ الجامع الأزهر مفتى السادة الحنفية ما التمس منه شيئاً يعود بإصلاح حالهم وإجلالهم إلا أجابه إليه وتلقاه بالقبول لديه، وغير خاف ما سبق غير مرة إدراجه فى هذا الشأن بكمال المسرة ومن ذلك ما سمحت به الآن الإرادة السنية بناء على ما التمسه من المعية ، وهو أن من الأزهريين من يتجارى لأغراض بدون أهلية على التدريس ، فإذا أقر عليه ترتب مالا ينبغى من إخراج العلم عن موضوعه النفيس وارتكاب الإخلال فى التفهيم واختلال الطلبة فى التعليم وذلك مخل بالدين وبشرف علماء المسلمين فاستنسب أن لا يؤذن لأحد من الآن فيه إلا إذا كتب إلى شيخ الجامع الأزهر ما يتضمن أنه تلقى ما اعتيد تلقيه فى هذا الجامع من كتب مذهبة وغيرها من كتب العربية بما فيها من مختصر السعد أو مع جمع الجوامع وانه يعانى تدريس الكتاب الفلانى واستعلم من معتبرى العلماء الأزهريين عن حاله واستوثق منهم بالشهادة المعتبرة بأنه بلغ درجة الكمال ، ولزيادة الوقوف على الحقيقة ومنع شبهة التساهل فى الشهادة الوثيقة، رئى أن يدعى إلى منزل شيخ الجامع الأزهر ستة من الافاضل لاختبار أمره ، واستبانة أنه من ذوى الفضل ، انتخب أثنان منهم من السادة الشافعية وهما من فضلهما غير خفى حضرتا الشيخ خليفة الصفتى، وشيخ رواق القشنيه أحد وكلاء الأزهر سابقا

والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى وأثنان من السادة المالكية، وهما المستجمعان لكامل الأوصاف حضرنا الشيخ عبد الرحمن البحراوى مفتى مديرية الجيزة (أحد أعضاء المجلس الخصوصى حالا) والشيخ عبد القادر الرافعى شيخ رواق الشوام مفتى ديوان الأوقاف ، وبإجتماعهم هناك يختبرونه فى شئ من الكتب الفقهية وشئ من الكتب العربية ، فإذا استبان فضله بتصوير مسائله - كتبوا له أيضا مايشهد بفضائله وتحرر له الأجازة بما يتضمن امتيازه ويعد فى المرتبة السابقة ويقيد بالقيود الازهرية وبناء على ما ذكر لزم التحرير رجاء العرض على جناب الخديوى الأعظم ، فإذا وافق وصدر الأمر العالى إلى نظارة الداخلية بإجراء ما تقدم وأن نشعر بأن من حرر له شيخ الجامع الأزهر الاعلان الشاهد بفضله ننشره فى الجهات اللازمة ، ليعلم أنه مستحق الاكرام وهو من أهله فأشعرت المعيه الداخلية بما استحسنه وأنه صدرت فيه إرادة تبقى فى وجه الدهر حسنة ، هى استنساب ما عرض على تلك الأعتاب ، إلا أن المدرسين يتفاوتون فى درجات العلم بلا ارتياب ، إذ منهم من يحسن العقليات والنقليات ، ومنهم من لا يحسن إلا نحو فن أو فنين ، فهم بالضرورة ثلاث درجات ، وبمقتضاها من بعد شهادة الامتحان لكل بأهليته يعطى (البيورلدى) اللازم من درجته ، وبالاتحاد ، وبالاتحاد مع حضرة ذلك الأستاذ فى ترتيب ما يلزم، ينظر فيما ذكر ويعرض للاستحصال على أمر الجناب الخديو الأعظم ، وذلك مالزم من الترقيم لإبلاغ سعادتكم ما صدر به النطق الكريم ، وبعد الاتحاد فيما يلزم فى هذا الشأن عرض على حضرة الجناب الخديو الأعظم فوقع لديه موقع الاستحسان وأصدر أمره العالى فيما رئى وهو أن يمتحن

من يريد التدريس بعد الشهادات الابتدائية ممن يوثق بهم على طبق الأصول المربوطة من المشيخة الأزهرية ثم ينظر أهو ذو وقوف تام على جميع العلوم المتنوعة إلى هذا التنويع (التفسير - الحديث - التوحيد - الفقه - الأصول - النحو - الصرف - المنطق - المعانى - البيان - البديع) أو على غالبها بحيث يقتدر فيها على تعليم كل المطالب أو المجموع الأكثر الغالب، فيحوز بماله فيها من اليد الطولى الدرجة المعتبرة السامية الأولى ، أو هو ذو وقوف على الأغلب واقتدار على أن يفهم معانيه ، إلا أن ملكته لاتساوى الأول فيحوز الدرجة الثانية . أو ذو وقوف على غير الغالب وله ملكة باعثة على تفهيمه للطالب ، فيحوز الدرجة الثالثة وبمقتضى شهادة أولئك العلماء المنتخبين يعطى من شيخ الجامع أجازة التدريس إلى كل حسب درجته التى تستبين ، وتعلم الداخلية ، ومن بعد عرضه علينا يحظى بإبراز (البيورلدى) اللازم له من الدرجة التى بها امتاز ، فإن كلا من الحزب الأول المنيف أنعم عليه بكسوة التشريف ، وإلا انتظر إلى أن يرى فى درجة هذا بإمتحان ثان ، فيعرض أمره إليه بيورلديها . والكسوة التشريفية لاستكماله فى العرفان ، وحيث أن ما رئى وقع لدينا موقع القبول والإستحسان أصدرنا أمرنا هذا للعلم به وتنفيذ مقتضاه والإعلان، أدام الله الجناب الخديو موفقا للخيرات . مشكور المساعى على مثل هاتيك المبرات مفيضا على الدوام فيوض المكارم، مستوجبا صالح الدعوات لاسيما من أولئك الأكارم» .

٤ ذى الحجة ١٢٨٨ - ١٣ فبراير ١٨٧٢

(الوقائع المصرية رقم ٤٤٤)

وفى نفس الوقت اهتم إسماعيل بأمر الأمية والقضاء عليها فكان السبيل للقضاء عليها وسائل عديدة ومحاور ، فكان فى المادة الأخيرة من لائحة مجلس الشورى النواب أنه فى الانتخاب السابع أى بعد ثمانى عشرة سنة يجب على المندوبين (النواب) أن يعرفوا القراءة والكتابة ، وفى الانتخاب الحادى عشر أى بعد ثلاثين سنة يجب على الناخبين أنفسهم أن يكونوا مستوفين لشرط القراءة والكتابة وهذا من شأنه تحفيز الشعب على القراءة والكتابة.

ولم يلتزم دستور ٢٣ بهذا النص ولا دستور مابعد الثورة ونص فقط على الإلمام بالقراءة والكتابة للمرشحين على أن يكون نصف الأعضاء من الفلاحين والعمال على الأقل، ولم يشترط فى الناخبين الإلمام «بالقراءة والكتابة» وأيا كان الأمر فإن إسماعيل كان حريصا على أن يدفع الشعب على التعليم وأيضا ألزم القوات المسلحة بعد ترقى الضباط والصف ضباط إلا بعد اجتياز امتحان القراءة والكتابة وفى هذا المجال صدر الأمر الكريم إلى ديوان الجهادية فى ٦ ذى الحجة ١٢٨٧هـ الموافق ٢٧ فبراير عام ١٨٧١م.

وفيما يلى نص الأمر الكريم :

أمر كريم ديوان الجهادية ..

«قد تعلقت إرادتنا أن الضباط الذين يحصل امتحانهم لإصعادهم إلى رتب من الآن فصاعدا ، يلزم أن يكونوا يعرفون القراءة والكتابة، وبالمثل الصف ضباط الذين يجرى امتحانهم أيضا للترقى ، يكون لهم معرفة بالقراءة والكتابة . وأصدرنا أمرنا هذا لكم بذلك لتعلموه وتتبعوا الإجراء بمقتضاه»

واهتم أيضا إسماعيل بالتعليم الأولى ، فزاد عدد التلاميذ من ٣٠٠٠ تلميذ عند ولايته فى ١٨٦٣ حتى أصبح ٩٠٠٠٠ تلميذ فى عام ١٨٧٣، أى زاد العدد فى خلال عشر سنوات إلى ثلاثين ضعفا ووصل إلى ١٢٠٠٠٠ تلميذ فى عام ١٨٧٥ .

وبالنسبة للمدارس الأهلية فقد وصل عدد التلاميذ إلى ١٠٠٠٠٠ تلميذ فيما بين المدارس الأهلية والأوقاف أو ما تعرف عليه الحكومة وبالنسبة للمدارس الأجنبية فوصل عدد التلاميذ إلى ١٠٠٠٠ تلميذ وبالنسبة للتعليم العالى فوصل عدد الطلبة إلى ٣٥٠ طالباً عام ١٨٧٠ بعد أن كان عددهم ٤٩ طالبا عند ولايته وبذلك زاد عدد الطلبة إلى سبعة أضعاف فى سبعة أعوام .

وفى مجال تعليم البنات كان إسماعيل حريصا على تعليمهن وكان يعتبر أن البنت هى أم المستقبل ولاتنس أنه بدأ بأسرته فقد اهتم إسماعيل بتعليم كريماته زينب وفاطمة وغيرهن ليكن على أعلى درجات العلم والثقافة مثلهن مثل الأميرات الأوروبيات.

وتحتفظ لنا الوثائق التاريخية بخطاب من إسماعيل إلى لاركنج أحد المسئولين عن التعليم فى بريطانيا تقول الرسالة: «أرجو منك البحث عن مدرسة لابنتى زينب هانم، أود أن تكون بسيطة فى تصرفاتها ،ذات تربية عالية وثقافة رفيعة تحسن التكلم بالإنجليزية ، والفرنسية ويمكنها تدريس العزف على البيانو».

ومازالت ذاكرة التاريخ تردد قصة تبرع الأميرة فاطمة إسماعيل بالأراضى التى أقيمت عليها مبانى الجامعة المصرية (جامعة فؤاد فيما بعد) جامعة القاهرة حاليا.. أقيمت على هذه المساحة مبانى الجامعة وقاعة

المؤتمرات التى ليس لها مثيل فى أفريقيا ولا فى الشرق الأوسط . وكذلك قامت بمنشآت ومبانى كلية الآداب ومكتبة جامعة القاهرة على نفقتها ومازالت جدران هذه الكلية تردد ذكريات زيارتها للكلية أثناء إنشائها ومتابعتها للمبانى يوماً بيوم . ومراجعة الرسومات مع المهندسين حينذاك، ومازالت على مدخل كلية الآداب جامعة القاهرة منقوشا عليها هذه الذكرى..

ويذكر التاريخ فى هذا الصدد رسالة بروسلى القنصل الأمريكى إلى وزير خارجية:

«أقلع إسماعيل عن المعتقدات الباطلة المتأصلة من قرون فى بلاده ، وهى معتقدات ليس لها حتى عذر الاتصال بأصول الدين ، فقرر أن يكف حرمان المرأة المصرية من منافع التربية وأمر أن يكون تعليم البنات موضعا لأكبر عناية من حكومته لقد أنشئت فى القاهرة مدرسة الفتيات المسلمات وهى أول مدرسة من نوعها تأسست فى الشرق وهى مدرسة السبتية فى السيدة زينب(*) حاليا ، والعمل جاء على تنظيم معاهد كبيرة أخرى من ذات النوع ، ولاشك أنه ليس من اليسير تبديل الحالة الاجتماعية للمرأة الشرقية ، وتحريرها من هذه العبودية المنزلية ، التى سلبتها كل قيمة فكرية ، ولكن الخديو قد عقد العزم على ألا يألو جهدا لتحقيق هذا الغرض السامى فى مصر وستثير هذه الثورة الاجتماعية اهتماماً غير عادى لأنه يتوقف على نجاحها ، حل مسألة غدت حجر عثرة إلى اليوم فى تقدم الشرق، ودفعه من السير فى سبيل المدنية الحديثة»

وفى مجال البعثات لم يهمل ملء فجوة الخبرات فى التخصصات المختلفة للتدريس بالكليات أو المدارس العالية بلغة عصر إسماعيل، وبلغ

* من أولى خريجاتها المربية العظيمة نبوية موسى التى قادت تعليم الفتيات فيما بعد

عدد الموفودين حتى عام ١٨٧٣ [١٧٤] طالبا منهم عدد [٥١] طالبا مبعوثا فى نفس العام ١٨٧٣

إلى فرنسا	٢٤ طالبا
إلى المانيا	٢ طالبان
إلى انجلترا	١٣ طالبا
إلى إيطاليا	١٢ طالبا

وهكذا نجد أن عصر إسماعيل كان عصر علم وتعليم وثقافة وتنوير ، اهتم بالبعثات وبتعليم البنات وبالتعليم الأولى والعالى واعتبر قضية محو الأمية قضية قومية ... وفى الصفحات التالية سوف نستعرض مجهودات إسماعيل فى مجال الثقافة والمحاضرات والجمعيات العلمية والمؤتمرات والمعارض والمحافظة على الآثار والتنقيب عنها.

وفى مجال الثقافة . أنشأ إسماعيل دار الكتب فى سراى درب الجماميز حيث ديوان المدارس ، وفى هذا الصدد سوف نطالع معاً الوقائع المصرية العدد رقم (٣٥١) الصادر فى ٩ محرم عام ١٢٨٧ الموافق ١٠ ابريل عام ١٨٧٠ فى شأن تنظيم دار الكتب :

«أنه فى الساعة الحادية عشر من يوم الأحد الماضى شرف حضرة الجناب الخديو المفخم الكتبخانة الجديدة التى أنشئت فى ظله المديد بمعرفة حضرة سعادة على مبارك باشا، على مقتضى الأحوال الهندسية والقوانين المعمارية فى سراية درب الجماميز، التى بها ديوان المدارس فى مكان جميل، مساعد على حفظ الكتب من الآفات، مستجمع للشروط اللازمة من

النور وطيب الهواء وغير ذلك مما هو على طبق مرغوب الجناب الخديو الكريم حيث كانت رغبته السنية أن يجمع فيها جميع الكتب القديمة النقية المكتوبة بخط اليد والمتفرقة فى المساجد والمؤلفات المطبوعة بأن توضع فى دواليب بكيفية مخصوصة، يسهل بها مراجعتها لكل من أراد ومن ذلك حصل لحضرته مزيد من السرور وكمال الخط الموفور، كما سر بمشاهدة مدرج الامتحان العمومى الملحق بتلك الكتبخانة ، والمسموع أنه بالمساعدة السنية، ستجلب إليها كتب موقوفة سمية، وجملة عظيمة من مؤلفات اللغات الأجنبية ، للتسهيل على أرباب المطالعة والتيسير فى أمر المراجعة، ومن بعد الوقوف على علم ذلك بالتفصيل يدرج. ولأجل التيسير ذكرنا هذا القدر القليل»

وفى عام ١٨٧١ أى بعد إنشاء دار الكتب بعام واحد بدئ فى وضع نظام وتنظيم محاضرات بقاعة المحاضرات الملحقة بدار العلوم بحرم سراى درب الجماميز .. وفيما يلى ما جاء على صفحات الوقائع المصرية العدد رقم ٤١٤ الصادر فى ١١ ربيع الثانى ١٢٨٨ الموافق ٢٩ يونيو عام ١٨٧١ ، فى شأن انشاء أقسام المحاضرات العامة:

«إن من كانت حلية الفعل له لباسا ، وشجرة الفضل والحكمة له فراساً يرتقب فى كل وقت وحين انتهاز فرصة يكون من أسباب نجاحها واكتساب صلاحها على يقين سواء كانت منفعتها قاصرة على خاصة نفسه ، أو متعدية إلى غيره من أبناء جنسه، بل إيثار السعى فى تعدى المنفعة لسواه ، أولى ما يحكم به العقل الكامل ويهواه، ولهذه المناسبة بعينها كان ديوان المدارس المصرية لا يزال يظهر منه إلى خير الوجود يوما فيوما، منافع جليلة عصرية جاعلا مطمح أنظاره ومسرح أفكاره، فيما تكون به دائرة

المعارف والعلوم متسعة، لحصول الفائدة وتمام المنفعة، فقد انتخب فى هذه الأيام بالعناية الخديوية، أدامها الله مدى الأعوام، فضلاء بارعين متمكنين وعلماء راسخين متقنين تعينوا لإلقاء دروس عمومية مختلفة الموضوع، تقرأ لعموم الناس فى خلال كل أسبوع. فوجب علينا أن نوضح ذلك بأن ديوان المدارس قد رخص لكل إنسان يروم أن يحظى من المعارف بالإسعاف والاسعاد، أن يحضر أى درس من تلك الدروس العمومية متى أحب وأراد ، ونحن على يقين من أن المنهل العذب كثير الزحام، والمنزل الخصب يهرع إليه الخاص والعام «يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء»..

ومحل التدريس بدار العلوم المعروفة بالانفتياتر التى بجوار الكتبخانة الخديوية، الكائنة بسراى درب الجماميز البهية، وأما أسماء المدرسين وأوقات دروسهم فهى المذكورة به حضرة الشيخ حسين المرصفى، تعين لتدريس علوم الأدب، له يومان فى الأسبوع ، يوم الأحد يوم الأربعاء، درسه يبدأ من حيث الساعة ٨ وينتهى حيث الساعة ١٠ . (حضرة إسماعيل بك الفلكى) تعين لتدريس علم الفلك باللغة العربية يوم الثلاثاء فى الوقت المذكور .

حضرة مسيو ويدال، لتدريس فن السكة الحديدية باللغة الفرنساوية، وله : يوما السبت والاثنين، ودرسه يبدأ حيث تكون الساعة ٣٠,٣ دقيقة وينتهى حيث الساعة الخامسة.

حضرة منصور أحمد أفندى، تعين لقراءة علم الطبيعيات مع التجارب على الآلات باللغة العربية، يوم السبت فى الوقت المذكور.

حضرة فرانس بك، لتدريس فن الأبنية باللغة الفرنساوية يومى الأحد والثلاثاء فى الوقت المذكور.

جناب مسيو جيجون ، لتدريس فن الآلات البخارية باللغة الفرنسية يوم الأربعاء في الوقت المذكور.

جناب مسيو بروكش، لقراءة التاريخ العمومي باللغة الفرنساوية يوم الخميس في الميعاد المذكور.

وسيجرى انتخاب أناس أخر، تتم بهم الفائدة ، ونعم العائدة، أدام الله حضرة الخديو الأعظم معززاً بالتوفيق الإلهى والحظ الأتم.

في ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ هـ - ٢٩ يونيو سنة ١٨٧١ م (الوقائع المصرية عدد ٤١٤) كان الخديو إسماعيل يدفع بمصر وشعب مصر إلى العالمية امتدادا لسياسة جده، فبدأت مصر في الاشتراك في المعارض الدولية، في الصناعة ، والزراعة، وغيرها في كل عواصم أوروبا .. وفيما لى بيان عن المعارض التى اشتركت فيها مصر بمعظم العواصم الأوروبية خلال الفترة ما بين عام ١٨٦٧ وعام ١٨٧٨,

المعارض التى اشتركت فيها مصر:

اسم المعرض	البلد	التاريخ
معرض باريس	باريس	١٨٦٧
المعوض العالمى للزراعة ولتربية دود الحرير	ليون	١٨٧٢
المعرض العالمى للزراعة وتربية دود الحرير	فينا	١٨٧٣
معرض فلاحة البساتين	كولونيا	١٨٧٥
معرض فيلادلفيا	فيلادلفيا	١٨٧٦

المعرض الدولى للنبات وفلاحة البساتين	امستردام	١٨٧٦
معرض مؤتمر الصحة والنجاة	بروكسل	١٨٧٦
المعرض العالمى	باريس	١٨٧٨

(ملفات ٣٦ عابدين)

وأيضا شاركت مصر فيما بين ١٨٦٦ ، ١٨٧٨ فى عدة مؤتمرات فى البريد والبرق والصحة والعلوم الطبية، والإحصاء والعلوم الجغرافية وهى كما يلى :

المؤتمرات التى اشتركت فيها مصر

اسم المؤتمر	اسم البلد	التاريخ
١ــ المؤتمر الصحى الدولى	الآستانة	١٨٦٦
٢ ـ المؤتمر الصحى الدولى	فينا	١٨٧٤
٣ ــ مؤتمر البريد الدولى	برن	١٨٧٤
٤ ــ المؤتمر التلغرافى الدولى	سان بطرسبورج	١٨٧٥
٥ ــ المؤتمر الدولى للعلوم الجغرافية	باريس	١٨٧٥
٦ ــ المؤتمر الدولى للإحصاء	بودابست	١٨٧٦
٧ ــ مؤتمر الصحة والنجاة	بروكسل	١٨٧٦
٨ ــ المؤتمر الدولى للعلوم الطبية	جنيف	١٨٧٧
٩ ــ مؤتمر البريد	باريس	١٨٧٨

وفى مجال الصحافة والإعلام نشطت حركة الصحافة بشكل ملحوظ ، فأثناء حكم إسماعيل فى عام ١٨٧٨ كانت عدد الصحف ٢٧ صحيفة ، بلغ مجموع ما يطبع منها شهريا حوالى ٣٠٠ ألف نسخة بعدة لغات منها التركية والفرنسية والايطالية واليونانية .. والصحف التى كانت باللغة العربية كانت سبع صحف ، وعلى رأس هذه الصحف المصرية جريدة الأهرام التى صدرت فى ديسمبر عام ١٨٧٥ .

واهتم الخديو بجريدة الوقائع المصرية، وبالعاملين فيها لتطويرها وإعادة تنظيمها وفى هذا الصدد صدر الأمر الكريم التالى : فى ٣ رجب عام ١٢٨٢ الموافق ٢٢ من نوفمبر عام ١٨٦٥

أمر كريم إلى ناظر المالية

«إن منافع الجرائد، سواء كانت لصالح الأهالى أم لصالح الحكومة، من الأمور المهمة المسلحة ، وحيث أن وضع الوقائع المصرية فى صف الجرائد المعتبرة من أهم رغباتنا، وقد صدر أمرنا لصاحب السعاده خيرى بك المكتوبجى بهذا الخصوص ، وعرض علينا الجدول المرتب من طرفها بتخصيص مرتبات قدرها تسعة آلاف وثمانمائة وخمسون قرشا كما هو محرر بأعلاه فبناء عليه وافقنا على العمل بموجبه» .

وكان ضرورياً للاهتمام بالصحافة وخصوصاً الوقائع المصرية كما أوضحنا أن يهتم إسماعيل بالمطبعة الأميرية أولا التى كانت عامرة أثناء حكم محمد على، ولكنها أصبحت خراباً فى عهد محمد سعيد وفى هذا صدر أمر إسماعيل إلى ناظر الدائرة السنية فى هذا الشأن فى ١٥ رمضان عام ١٢٨١ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٦٥ .

المطبعة الاميرية :

أمر كريم إلى ناظر الدائرة السنية

«فى عهد المرحوم سعيد باشا كانت المطبعة الاميرية الكائنة ببولاق قد أهديت إلى عبد الرحمن رشدى بك، ومن أجل ذلك ابتدأت من ذاك اليوم تشرف على الخراب وكادت تتعطل، فلما طرق مسامعنا هذا الخبر تأسفنا كثيرا وحيث أن هذه المحل من الآثار الجليلة، ومنافعه وفوائده العامة عظيمة وأن المروءة والإنسانية لا ترضى ولا تقبل أن تشاهد هذا الأثر الجليل مشرفا على الخراب، تنتظر تعطيله بارتياح وبدون تأثر، فبناء عليه اقتضت إرادتى شراء المطبعة المذكورة بكافة مشتملاتها ومهماتها وأدواتها الموجودة من المير المومى إليه بمبلغ عشرين ألف جنيه على اسمى، وذمتى فلذلك يجب أن تبادروا بإعطاء المبلغ المذكور إلى المومأ إليه من خزانة دائرتنا وإجراء اللازم بخصوص تبديل وتحرير الحجة اللازمة على إسمنا وأن تسارعوا بتسلم المحل المذكور والسعى فى حين إدارته، ولذلك أصدرنا أمرنا وأرسلنا إليكم».

وفى مجال الثقافة والحركة الفكرية والعلمية، اهتم إسماعيل بالآثار ووضع اللوائح والتشريعات بشأن المحافظة عليها وتشجيع أعمال التنقيب عنها.

وفيما يلى بعض نصوص الأوامر الموجهة إلى مفتش وجه قبلى بخصوص تشغيل العمال فى أعمال التنقيب وتنظيمها والمحافظة عليها.

أمر كريم إلى مفتش قبلى:

«بما أن بقاء أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار تحت نظارة ماريت بك، موافق لإرادتنا ، فإننا نخطركم بوجوب التحرير من لدنكم إلى المديريات التى تحت إرادتكم ليتولوا إيفاد العمال الذين يطلبهم البك المذكور لهذه الأشغال بالأجور المرغبة، مع إرسال الفؤوس والمقاطف وما إلى ذلك رفقا للأصول.

وحيث أن رؤساء العمال مقيدون فى المالية ولا علاقة لهم بالمديريات بأن الأجور ستدفع للعمال المشتغلين فقط، ولذلك يقتضى أخذ ضمانات من مشايخهم ، خشية تعطيل الأشغال بسبب هروبهم وضياع الأموال المرفوعة ، هباء».

فى ٢ ذى القعده سنة ١٢٧٩ ـ ٢١ ابريل سنة ١٨٦٣ سجل ٥٢٦ معيه تركى

أمر كريم إلى مفتش قبلى:

«بما أن الآثار الموجودة فى القطر المصرى تساعد على تنوير تاريخ البلاد العام وتخليد ذكرها، بحيث أن رغبتنا العمل على أن تكون جميع هذه الآثار محفوظة فى عهدتنا ، فإن من تقتضى إرادتنا أن تكتبوا بدوركم إلى المديرين وتنبهوا عليهم تنبيهات مؤكده لمنع أى شخص منعاً باتاً من تحطيم هذه الآثار أو أخذ أحجار منها، سواء لاستعمالها فى منشآتهم الخاصة أم فى المبانى الأميرية ، ولترتيب الخفراء اللازمين بالأجرة فى حالة طلب مصلحة الآثار ذلك».

وفيما يلى أوامر أخرى فى مجال اهتمام اسماعيل بالآثار:

أمر كريم إلى مفتش قبلى :

«يعثر بعض القرويين، فى كثير من الأوقات، وبطريقة الصدفة على عاديات مطمورة فى التراب ، وحيث أن إرادتنا تقتضى بوجوب إبلاغ مصلحة الآثار عن كل ما يعثر عليه من بعد الآن، للنظر فيما يستلزمه الأمر على أن يترك الأثر مكانه إن كان فخما، أو يرسل إلى المصلحة فى بولاق إن كان صغيرا، فقد كتبنا لكم هذا لتبلغوه المديريات التى تحت إدارتكم لتنفيذ أحكام إرادتنا».

فى ٢ ذى القعده سنة ١٢٧٩ ـ ٢١ ابريل سنة ١٨٦٣ (سجل ٢٥٦ معيه تركى)

أمر كريم إلى مفتش قبلى :

«اعتاد سكان القرنة والاقصر والكرنك البحث دواما عن الآثار والعاديات، وأخذ الأحجار من المبانى الأثرية لبناء الجدران وغيرها وحيث أن الواجب يقتضى بمنعهم من ذلك، فإننا نأمركم أن تعلنوا على حضرات المديرين، مؤكدين ضرورة الاهتمام والعناية ، لعدم تكرار مثل هذه الأمور فى المستقبل ، وإن وجدوا أوامر صادرة من أسلافنا باسم هذا أو ذاك، مصرحة لهم بالتنقيب عن الآثار ، فعلى مدير الجهة منعهم إذا ما ارادوا التنقيب بموجب الأوامر التى بأيديهم ، وبعد الاطلاع على الأمر الشامل للتصريح يستنسخه حرفيا ويرسل صورته إلينا ، ثم ينظر ما نأمر به فى هذا الشأن.

نلفت نظركم إلى أن يكون التنفيذ بعناية بالغة ويقظة وانتباه وبكياسته تحول دون حدوث شغب أو مشاكل».

فى ٢ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ ـ ابريل ١٨٦٣ (سجل ٥٢٦ معيه تركى)

وكان حريصا على أن تواكب مصر العالم فى المجالات العالمية فكان سباقاً إلى إنشاء الجمعيات العالمية . وكانت باكورة هذه الجمعيات االجمعية لجغرافية الخديوية التى كانت من أولى الجمعيات الجغرافية فى العالم.

وفي هذا الصدد يقول أول رئيس للجمعية المصرية فى جلسة الافتتاح ما نصه «جمعنا الخديو بنفسه وقد اراد لمصلحة العلم والبلاد ـ أن تنشأ فى القاهرة كما أنشئ فى عواصم العالم ـ جمعية جغرافية ، تكون مركزاً ونقطة اتصال لكل الجهود التى تبذل لاستكمال معرفتنا للكرة الأرضيةو بالتالى لأرض مصر.

وفيما يلى نص الأمر الكريم لإنشاء الجمعية :

نظراً للفوائد التى تعود على العلوم الجغرافية والصناعة والتجارة المصرية من تشجيع استكشاف الأقطار الافريقية والبلاد المجاورة لها.

أصدرنا أمرنا بما يأتى :ـ

المادة الأولى ـ تنشأ بالقاهرة جمعية يرخص لها فى أن تسمى الجمعية الجغرافية الخديوية.

المـادة الـثانية ـ نوافق على قوانين الجمعية الملحقة بهذا.

المـادة الثـالـثة ـ تمنح هذه الجمعية إعانة سنوية قدرها ٤٠٠٠ جنيه.

المـادة الرابـعة ـ يعين الأستاذ چورچ شونيفورتث رئيسا للجمعية.

المادة الخامسة ـ يكلف ناظر الداخلية تنفيذ أمرنا هذا.

وغرض الجمعيه هو :ـ

(١) درس العلوم الجغرافية بجميع فروعها.

(٢) استكشاف البلاد الأفريقية المجهولة، أو التي لا يعرف عنها إلا القليل.

وتحقيقا لهذا الغرض، تعقد الجلسات وتصدر مجلة تنشر فيها محاضر الجلسات والأبحاث الاصلية ووصف الرحلات العلمية، مشفوعاً بالخرائط وإعلانات عن المراجع الجغرافية، وملخصات الكتب ومكتبات الجمعية ، وجميع الوثائق التى تنم عن تقدم العلوم الجغرافية بالقارة الافريقية، وتعقد الصلات مع الجمعيات المهتمة بهذه الموضوعات وتراسل الرحالة وعلماء الجغرافية والعلوم الطبيعية ، أو من يحدبون على تلك العلوم.

تستحث على القيام بالرحلات الاستكشافية فى أفريقيا ، وتساعد هذه الرحلات بما تمتلكه من الوسائل، وتشجع بنوع خاص من الدراسات التى تعود بالفائدة على صناعة وتجارة مصر والبلاد المجاورة لها.

فى ١٩ مايو سنة ١٨٧٥ (ملف ٧١ / ٢ عابدين) ترجمه

وبذلك نكون قد أوضحنا بعض ما قام به إسماعيل فى سبيل إثراء روح الثقافة والتعليم بكل فروعه فى مصر فانتقلت البلاد من غيابات الجهل إلى نور المعرفة وأصبح لها شأن عظيم فى هذه الفترة من تاريخها إذا كانت منارة علمية وثقافية تشع فى كل المنطقة بفضل مجهودات إسماعيل التى ما زالت آثارها باقية حتى الآن .



الإصلاح الإدارى ...

«المكاتبات التى تتداول من الآن فصاعدا بكافة الدواوين والمصالح الميرية التى بداخل جهات الحكومة تكون باللغة العربية»

أمر كريم إلى ناظر المالية

٦ شوال ١٢٨٦ هـ – ٩ يناير ١٨٧٠ م



فى هذا الفصل سوف نستعرض الإصلاحات الإدارية التى كانت هى البذرة التى وضعها إسماعيل لتنبت فى المستقبل المؤسسات الإدارية والمصالح الحكومية والدواوين والنظارات من أجل ترتيب هيكل النظام والإدارة فى مصر ...

فبعد أن اطمأن إسماعيل باشا ، إلى قربه من الشعب والمجتمع المصرى بكل طبقاته ، وتعامل معه كوحدة واحدة ، وذلك .. بإنشاء مجلس شورى النواب وأرسى قواعده الدستورية واعتبر هذا المجلس بداية وأساسا للحياة النيابية فى مصر قلب الشرق ، بعد أن اطمأن لذلك كله ، بدأ فى وضع الأساس للسلطة التنفيذية . الجناح الأيمن للدولة ليرسى قواعدها على ما يماثل الإدارات المناظرة فى ممالك أوروبا ، وكان حريصا على إنشاء المجلس المخصوص، مجلس النظار برئاسته ، لتهيئة المناخ للمصالح التنفيذية والأجهزة المختلفة التابعة بسلطات وصلاحيات محدودة لمهامها.

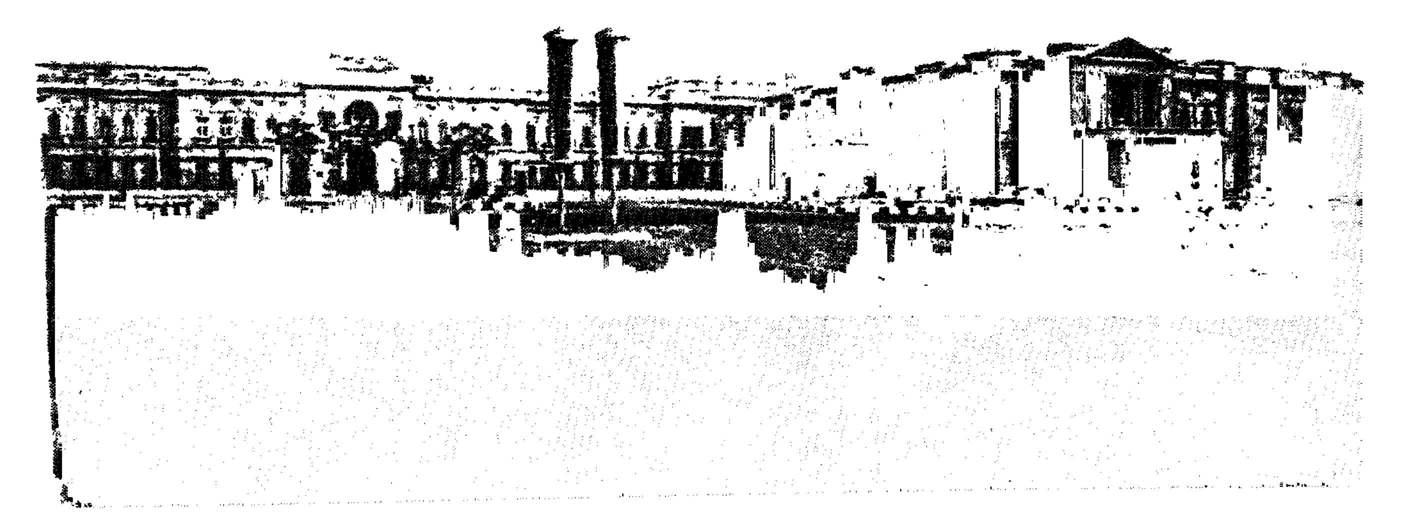
وفى هذا الصدد كلف الخديوى نوبار باشا لتشكيل مجلس النظار (مجلس الوزراء) على غرار النظام الأوربى ، وجاءت توجيهاته طبقا للنص التالى فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م .

من إسماعيل إلى نوبار :

«إنى أطلت الفكر وأمعنت النظر فى التغييرات التى حصلت فى أحوالنا الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات الأحوال الأخيرة ، واردت فى وقت مباشرتكم لمأمورية تشكيل هيئة النظارة الجديدة التى فوضت أمرها إليكم أن أؤكد لكم ما توجه قصدى إليه ، وثبت عزمى عليه ، من إصلاح الإدارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى إدارات ممالك أوروبا .

واريد عوضا عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية ، سلطة يكون لها إدارة عامة على المصالح التى تعادلها قوة موازنة من مجلس النظار بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه. وعلى هذا الترتيب . أرى أن إجراء الإصلاحات التى نبهت عليها ، يستلزم أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا ، فإن ذلك أمر لازم لابد منه يجب على مجلس النظار أن يتعارض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالفطر ، ويرجح رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل عدداً ، فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية ، وبتصديقى عليها أقرر الذى تكون عليه الأغلبية . يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قرارات المجلس المصدق عليها منا فى الإدارة المنوطة به ـ تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين هم لإدارته وبين رئيس المجلس . وما يستقرعليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس المجلس لأجل تصديقنا عليه.

الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت إدارته مباشرة ، له الحق فى توقيعهم عند الاقتضاء ، عن إجراء



قصر عابدين ـ كان اسماعيل أول من نزل من القلعة ونزل إلى قصر عابدين وحكم منه مصر فى وسط القاهرة

وظائفهم ، وذلك بعد اتفاقه مع رئيس هيئة النظار ، وأما انفصالهم عن وظائفهم فلايكون إلا بعد اتفاق الناظر التابعين له ، مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا. للنظار أن ينتخبوا المأمورين ذوى المناصب العالية اللازمين لإداراتهم ، وأن يعرضوا ذلك علينا للتصديق عليه ، وأما الوظائف الصغيرة فيكون تعيين المستخدمين اللازمين لها ، بخطاب أو قرار من ناظر الديوان.

أعمال كل ناظر تجرى فى الأمور التى تكون من خصائصه لاغير . وأرباب الوظائف والمستخدمون فى كل فرع من فروع الإدارة لا يتلقون الأوامر إلا من رئيس المصلحة الذين هم مستخدمون بها وتابعون لها ، ولا تجب عليهم طاعة أمر غيره .. ينعقد مجلس النظار تحت رئاستكم ، لأنى فوضت هذا التنظيم الجديد إلى عهدتكم وجعلت مسئوليته عليكم.

وإنى أرى تشكيل هيئة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفا لعوائدنا وأخلاقنا ، ولا لآرائنا وأفكارنا ، بل موافقا لأحكام الشريعة الغراء ، وبتعميم ترتيب محاكم الحقانية يكون فيها الكفاية لحاجات هيئتنا الاجتماعية ، والمساعدة على تنمية مقاصدنا الحقيقية ونياتنا الخيرية - وإنى معتمد عليك فى إجراء الاصلاحات التى صممت عليها ، مؤملا أن تكفل للبلاد جميع التأمينات التى لها الحق فى انتظارها والحصول عليها من حكومتنا».

وتم بالفعل فى عهده إنشاء عدة وزارات . كانت تسمى نظارات - علاوة على بعض النظارات التى كانت قائمة منها نظارة الخارجية وكان يتولاها ذو الفقار باشا ومن بعده شريف باشا وأيضا تولاها نوبار باشا ، ونظارة المالية وتولاها رشيد بك ونظارة الحربية.

أنشأ إسماعيل نظارة الأشغال العامة وذلك طبقا لأمر الخديوى الصادر في ٧ ديسمبر عام ١٨٦٤ وكان أول ناظر لها نوبار باشا ، ونظارة التجارة وكان أول ناظر لها نوبار باشا أيضا وذلك بالأمر الكريم الصادر من الخديوى بإنشاء نظارة الزراعة وكان أول ناظر لها رياض باشا.

جميع هذه النظارات التى أنشأها إسماعيل باشا كانت لحاجة التنمية إليها فكانت على سبيل المثال وزارة التجارة لتوسيع الأسطول التجارى والتجارة والصناعة عموماً، والأشغال العامة لتوسعات التنمية على خريطة مصر ، والزراعة لتوسعات الزراعة تمشيا مع شبكة الترع وإدخال زراعات عديدة سيأتى ذكرها فيما بعد.

هيأ إسماعيل المناخ للمصريين الفلاحين لكى يتولوا المصالح الحكومية وفى عهده زاد عدد الموظفين المصريين إلى عشرة أمثاله وذلك على حساب الموظفين الأتراك الذين تم إقصاؤهم عن مراكزهم ، وبالطبع لم يكن لهذا المناخ أن يتأتى بدكريتو أو أمر رسمى بهذا المعنى ، ولكن كان بتوجيهات الوالى نفسه ، صحيح أن إجراءات التعيينات قد اتخذت فى كثير من التسرع ، إذ أنها كانت رد فعل لاستفزازات وتهديدات استانبول ، وفى هذا المجال نطالع جريدة البروجريه المصرية الصادرة فى ٢٩ يناير عام ١٨٧٠ تؤكد سياسة إسماعيل فى السنوات السابقة منذ أن أصبح واليا من ٦ سنوات مضت تقول الجريدة : «لقد أتت الحكومة عملا ذا شأن ، سيساعد على تهيئة المصريين ليفهموا أن لهم حقوقا ، وأن عليهم أن يصبحوا أهلا للمطالبة بها عند الاقتضاء ، فقد ولت الحكومة عدداً كبيراً من الفلاحين المصالح العمومية وأقصت عنها الأتراك ، وقد يكون هذا الإجراء قد اتخذ فى كثير من التسرع وبتأثير من الاستفزاز المترتب على تهديدات استانبول ولكن الإجراء قد اتخذ وهو جيد فى ذاته ويعلم الفلاحون أنهم مدعوون من

اليوم لتأدية الوظائف المدنية فى المديريات والمصالح العامة ، وسيشعرون بأنهم فى حاجة إلى التعليم للقيام بوظائفهم وستجد الحكومة نفسها مضطرة إلى أن تهيئى لهم ما ينقصهم من وسائل التعليم.

وكان الخديو حريصاً على تأمين الموظفين على حياتهم وحياة أسرهم وذلك بتأمينهم على وظائفهم ، وعدم نقل موظف من مصلحة إلى أخرى أو من محافظة إلى أخرى إلا بعد دراسة مستفيضة ، وتدون أسباب النقل ، لكى لا يقع ظلم على أى موظف مصرى وفى هذا الصدد صدر الأمر الكريم من الخديو إلى شيمى بك وكيل الأمرارية فى ٢٨ سبتمبر ١٨٦٣ فى نفس العام الذى تولى فيه الحكم : «حيث إنه لايجوز نقل أى واحد من المستخدمين من ديوان إلى ديوان آخر ، ومن مديرية إلى مديرية أخرى، ومن مصلحة إلى مصلحة أخرى قبل أن تعرض الكيفية علينا ، فبناء عليه يجب عدم إجراء أى نقل بدون استئذان منا ، ولهذا حررنا لكم» .

وفى صدد المراقبة والتفتيش والمحاسبة على سير العمل وكيفية تنفيذه صدر أمر كريم فى إنشاء ديوان التفتيش ديوان العموميات والأقاليم والمحافظات وسائر الدواوين ومصالح الحكومة فى ١٤ مايو ١٨٧٣ وكان بتمصير الإدارة أن رجعت مصر إلى جنسيتها مدة ثانية ولم يكن هذا كافيا فقد كان التعريب هو تتويجا للتمصير وأصبحت العربية هى اللغة الرسمية للمكاتبات الرسمية بكافة دواوين ومصالح ومديريات الحكومة وذلك بداية من ٩ يناير ١٨٧٠ وهو تاريخ صدور الأمر الكريم للخديو إسماعيل، وذلك بعد اكثر من أربعة قرون كانت تستخدم اللغة التركية فقدت اثناءها مصر لغتها وعروبتها.

وفى ٥ يوليو ١٨٧٥ أصدر الخديو أمرا باتباع التقويم الجريجورى ليكون أساساً لحسابات ميزانية وموازنة الحكومة يقول الأمر الكريم «حيث أن

المعاملات الجارية فى الدواوين مع الأورباويين معظمها على واقع الشهور الأفرنكية والحسابات والموازيين معتاد إجراؤها على الشهور الأفرنكية والحسابات والموازين معتاد إجرائها على الشهور القبطية فلو أن عدد أيام السنة فى الحالتين لافرق فيه لكن لأجل عدم التخالف فى التواريخ فقد اقتضت إرادتنا أن تكون حسابات الحكومة على الشهور الأفرنكية ويعتبر ذلك من السنة القابلة بمعنى أنه لغاية النسيء ١٥٩١ الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٧٥ يستمر الحال على ما هو جار لحد الآن ومن غره من ١٠٩٢ الموافق ١١ سبتمبر ١٨٧٥ يبدأ العمل على الشهور الأفرنكية.

وفى نفس العام لاتباع التقويم الأفرنكى ، وفى ١٢ أغسطس من ١٨٧٥ صدر الأمر الكريم الخاص بإتباع النظام المترى الفرنسى للمقاييس والمكاييل.. وفيما يلى نص الأمر الكريم : «حيث أنه من ابتداء السنة الحسابية الآتيه تقرر تحويل الموازيين والمكاييل الجارى تداولها والحالة هذه إلى الطريقة الاعشارية وإلغاء وإبطال الطرق المتفرعة المستعملة فى ذلك الآن بحيث من ابتداء السنة المار ذكرها لا يعتبر الأخذ والعطاء بالمصالح الميرية ودائرتنا ودوائر دولتو والدتنا وفامليتنا وملحقاتهم والخاصة والسرايات إلا بالطريقة السالف ذكرها ، فقد صدرت أوامرنا لمن لزم بإعلان تلك الجهات وفروعها من الآن للنظر فى مقدار مايلزم من الموازيين والمكاييل والمقاييس الكافية لما ذكر وإبعاث كشف بما يلزم لكل جهة وفروعها على وجه السرعة لنظارة التجارة لتداولها واستحضارها وهدفها بحسب لزومها وتسديد أثمانها لجهة إقتضاها ولزم إصدار أمرنا هذا إليكم بما ذكر لتعلموه وتجروا إجابة كما هو مطلوبنا».

وفى أول مايو ١٨٧٣ أصدر الخديو أمرا بإنشاء قلم الإحصاء وبذلك كان إسماعيل يدخل الأساليب العلمية إلى مصر . وبذلك كانت من أوائل الدول

فى العالم التى استخدمت الإحصاء لوضع خطط وتصورات فى المستقبل .. وكان قلم الإحصاء هذا هو الأول من نوعه فى الشرق ، وهو الذى تطور مع الزمن وأصبح الآن «الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء» وفى ٢٤ أبريل عام ١٨٧٩ صدر أمر الخديوى بإنشاء مجلس الدولة وأهم اختصاصاته هى :-

١- إبداء الرأى فى مشروعات القوانين قبل عرضها على مجلس الشورى.

٢- إعداد مشروعات القوانين التى تطلبها منه الحكومة وكذلك تحضير اللوائح الإدارية العامة.

٣- إبداء الرأي فى المسائل القانونية والتى تمس المصالح العامة مما يعرضها عليه مجلس النظار .

٤- البت فيما يقع بين النظار من تنازع الاختصاصات.

٥- السهر على تنفيذ القوانين.

٦- البت فى تصرفات الموظفين الذين يعرض أمرهم عليه .

٧- الحكم نهائيا فى القضايا الإدارية.

وكان رأى إسماعيل دائما هوفصل السلطات خلال سيادة القانون والذى كان يعتبره أساس الضبط الإدارى واستقامة الأمور فى البلاد وصلاحها واستقرار أحوال الأمة.

الإصلاحات الاقتصادية

«إن وجود الخديوى بمصر فى الصيف المنصرم وما أبداه من نشاط وعناية قد أنقذ البلد من أعظم كارثة هددته فى هذه السنوات الأخيرة وهى أخطر فيضان للنيل حدث منذ ٠ ٠ قرن»

بيردسلى

قنصل الولايات الأمريكية فى مصر

٢٤ يونية ١٨٧٥ م



كان إسماعيل واعياً لأن الإصلاح الاقتصادى هو ركن أساسى من أركان الإصلاح ، وهو هدف وأيضا وسيلة لإصلاح حال الإنسان المصرى، فكانت الحركة العمرانية التى قام بها والتى سوف تطالعها فى فصل العمران وما صاحب العمران من بنية أساسية أساسية لمصر كلها وللمدن الرئيسية .... فكان العمران هذا فى حد ذاته أساساً للتنمية الاقتصادية وأيضا لم يغفل إسماعيل أن من وسائل تحقيق ذلك هو التشريعات الخاصة بالاعفاءات الجمركية والضرائبية وأيضا إعطاء الأراضى بأسعار رمزية .. ولا تختلف كثيرا عن النظريات الحديثة من أجل التنمية الاقتصادية.

كانت الزراعة هى المدخل الاقتصادى لتنمية مصر، فما كان من إسماعيل إلا تشجيع الفلاحين على تعمير الأراضى والتوطن ومساعدة الأهالى لاشتغالهم بأمور الزراعة وإعدادهم بالإعانة وخصوصاً الأراضى البرارى فى شمال الدلتا وفى هذا الصدد أصدر إسماعيل أمراً فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٥ أى بعد عامين من ولايته مصر فهيا نطالع معاً الأمر الخديوى ص (١٦٠) أمر كريم إلى مفتش أقاليم بحرى :

«إنه لأجل حصول عمارية جهات البرارى بمديرية الغربية والدقهلية التى أطيانهم بالتبلعية لدوايرنا وتعايش الأهالى والأغراب الذين بهم دخول

الجميع نحت رعاية التكسب والتعيش وحسن التوطن واشتغالهم بأمور الزراعة ولو بإمدادهم بالإعانة إليهم حى تدور حركتهم.من ثروة التكسب والاشتغال بهذا الأمر ويصيروا مكفولين من ضنك المعاش والتشتت من الجهات لبعضها قد تعلقت إرادتنا بأن جميع أطيان البرارى تعلق الدواير التى بالمديريتين المذكورتين يصير إعطاها لمن يرغب الأخذ فيها بالزراعة بالشركة مع الدايرة التى تكون الأطيان بحيازتها وتكون مرخصة بعقد الشركة من سنة لحد ثلاث سنوات . حسبما يرغبه كل راغب ، بحيث أن عقد الشركة مع من يريد فهو يكون ، كما الجارى بين الأهالى وبعضها بمراعاة الزمان والمكان بدون أن يحصل تمييز لجهة الدواير فى شئ ما عن الجارى فيما بين الأهالى وبعضها ، كما وإنه لأجل إبراز المساعدة والإعانة لمن يريد الشركة فى ذلك قد سمحت إرداتنا بإبراز وإعطاء المساعدات الكلية لمن يرغبون الزراعة بالشركة فى ذلك ، حسبما توضح بالثمانية بنود المذكورة بهذا أدناه ، ولأجل مباشرة الإجراء فى ذلك من الآن بمعرفتكم ، إذ الآن هو قت الزراعة ، لزم إصداره لكم للاهتمام والمبادرة فى الإجراء ، وكلما انتهى عقد شركة يتحرر به جدول ويفاد به الدايرة التى يخصها ، كما أنه قد صار إبعاث صورة ذلك لدايرة حضرة والدتنا ، ولدايرتنا ليعلم ذلك بهم.

حاشية المواشى التى ذكر بالبند الثانى عن تثمينهم ، فإذا كان أصل أثمانهم المقيدين بها بالحسابات الآن ، تزيد عن ثمن الوقت الحالى فيصير تثمينهم الآن بحسب ما يساوى . أما إذا كان أثمانهم الأصلية ينظر أنها أقل ثمن بالنسبة لما إذا تثمنوا الآن . فمرحمة منا للشركا، يصير احتساب أثمانهم مع الشركاء كأصلها ، حيث تكون أقل من الأثمان الوقتية بالنسبة لهم .

البند الأول : الأراضى التى تلزم إلى ربيع مواشى الشريك ، فى زمن الربيع على قدر ما يخص أراضى الزراعة شركته من المواشى بحسب اللايق لخدمة الأرض ، تعطى له بمعدل كل رأس بهيم فدان واحد لزراعته برسيم بمعرفته بدون مقابل للأوسية ، لا مال ولاعشور بمدة الشركة .

البند الثانى : إنه لأجل منفعة الشركا من نتاج المواشى ، فالجاموس الإناث الموجود ، يعطى لهم بالشركة مع الأوسية بعد التثمين ، بحسب الوقت الحالى بدون معذورية، وأما ما يتحصل من الإناث من اللبن والجبن والسمن فجميعه يكون مباحا للشركة بالكامل ، ولم تأخذ منه الأوسية شئ ، وفقط النتاج هو الذى يكون داخل الشركة ، أما تسديد قيمة نصف المواشى الإناث الشركة السالف ذكرها ، فهذا يكون سداده فيما بعد مما يصيب الشريك من حصة فى النتاج الذى يتواجد من الشركة.

البند الثالث : إذا طلب أحد من الشركا تقاوى للزراعة، فتعطى له التقاوى اللازمة بقدر اللزوم لزراعته على سبيل السلفة ، وعند طلوع محصول زراعته ، فيصير تسديدها صنف عين كما صرفت.

البند الرابع : إذا كان أحد من الشركا طلب إعانته بصرف جانب نقدية لمشترا المواشى للزوم الزراعة فيعطا له، وبطلوع المحصول ينظر لحالته فإن كان محصول تسديد ذلك من الشريك إلى الأوسية فى سنتها لا يضر به ولا يوقف له سكته ولا توقيف فى إدارة زراعته فيها، وإلا فيصير ربط المبلغ ولا تحصيله بالتقسيط ، بمراعاة عدم ضياعة على الأوسية ولا تعطيل أموال زراعة الشريك.

البند الخامس : بوقت طلوع محصول الذرة فى الحلل والشتوى فى الأجران أو الصيفى فى المخازن، إذا أرادوا الشركا أخذ حقهم فى كل محصول

بوقت وجوده لا يمنعوا من ذلك، بل يعطا لهم سواء كان غلال من الأجران أو قطن بذرة من المخازن. وإذا تخزن شئ بالمخازن على ذمة الأوسية والشركا وانصرف وظهر به وفر مخازن، فالشركا لهم الحق فى أخذ حصتهم من ذلك الوفر.

البند السادس : إذا أرادوا الشركا أن يبيعوا للأوسية ما خصهم من محصول القطن الصيفى - فلا مانع يصير أخذه منهم بحالة التكسب لهم بكيفية أنه يحسب لهم الثمن سعر أثمان مبيع القطن أمثاله باسكندرية وقتها، بعد استبعاد المصاريف من اسكندرية إلى محله ومصاريف الحلج.

البند السابع : إذا كان بوقت محصول الشتوى أو الذرة النيلى يرغبوا الشركا أخذ ما يخص الأوسية من المحصول بطريق المشترى. أو أخذ جانب منه بقصد تعيشهم ، وأنهم سيسددوا ثمنه من محصول الصيفى، فلا مانع يعطا لهم ما يطلبوه من الغلال والذرة، ويحسب لهم بحسب الأثمان الجارية بين الأهالى وبعضها فى الوقت والجهة الذى يأخذوا فيها ذلك بدون زيادة عن الجارى.

البند الثامن : الذى يستلموه الشركا من حصة الشتوى بالأوسية ويسددوا ثمنه لها من محصول زراعة القطن الصيف مما يصيب حقهم من الشركة، يصير قبول القطن منهم باسعار وقته باسكندرية بعد المصاريف ومصاريف الحليج كما سلف الذكر.

٢٧ جماد آخر ١٢٨٢ هـ - ١٧ نوفمبر ١٨٦٥ م (سجل ١٩٢١ أوامر عربية) .

وفى مجال الإعفاءات الجمركية صدر الأمر الخديوى إلى شريف باشا ناظر الخارجية لإعفاء الآلات الزراعية المستوردة من الرسوم الجمركية

وذلك فى ١٢ سبتمبر عام ١٨٦٣ وفيما يلى نص الأمر : «قد اقتضت إرادتى إعفاء الآلات الزراعية المستوردة من ابتداء شهر تونى من سنة ٨٠ إلى ابتداء شهر تونى من العام الآتى، إعفاء وقتيا لمدة سنة كاملة فقط على سبيل المساعدة الاستثنائية نظرا إلى المرض الوافد على الحيوانات فى هذا العام، على أن يخطر القناصل بذلك رسميا بالوضع المناسب»

وصدر كذلك أمر خديوى إلى حسين كامى باشا أمين جمرك الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر عام ١٨٦٣ نصه : «الموافقه على إعفاء آلات تكبيس القطن المستوردة من الخارج فى المدة المحددة لإعفاء الآلات الزراعية من الرسوم الجمركية.

«المدة المنوه فى الأمر الخديو السابق» .

وفى مجال مساعدة الخديو للزراع فى حالات النكبات والقوة القاهرة حدث أن فيضان صيف عام ١٨٦٨ ، لم يكن بالارتفاع الذى يسمح برى كافة الأراضى الصالحة للزراعة، وآثار ذلك السلبية على الاقتصاد والإنتاج الزراعى - يقول بوجاد قنصل فرنسا حينذاك:

«اتخذ الوالى من تلقاء نفسه عدة تدابير للترفية عن المزارعين الذين أصيبوا بخسارة من جراء نقص المياه وهى:-

(أ) أن تعفى الأراضى التى بقيت بدون رى من المال والعشور فى هذه السنة.

(ب) أن توزع شون الحكومة التقاوى على المزارعين الذين يثبت التحقيق أنهم غير قادرين على الحصول عليها، وترد هذه التقاوى فى مدة تتراوح بين سنتين وأربع حسب موارد الزراع.

(جـ) أن يوزع القمح والذرة مجانا على المزارعين الذين لا يمكنهم ردها بالنسبة لقلة مواردهم.

(د) تعدل الحكومة عن تحصيل ضريبة الملح عن السنة الحالية، ويؤجل تحصيلها لمدة تتروح بين أربع أو خمس سنوات حسب مورد كل بلد.

(هـ) لا تحصل الأموال والعشور إلا فى أول شهر بشنس (٦ يونيه ١٨٦٩) وبذلك لا يدفع الممولون المال والعشور إلا بعد حصد المحصول وبيعه.

وقد أطرى الجميع الحكمة التى أملت هذه التدابير المختلفة، ولكن تعلمون سيادتكم أن أساس الضرائب وطريقة تحصيلها هنا معيبان جدا وأن أفضل الأوامر إذا ترك تنفيذه إلى صغار الموظفين الجاهلين فإنها كثيرا ما تضر بالأشخاص الذين وضعت لمصلحتهم، وهذا هو الاعتراض الذى يعترض به عادة فى شأن هذه الإجراءات الجديدة ولكن يظهر أن التنازلات الصريحة التى تنطوى عليها هذه الأوامر ستقضى على تلك المخاوف فى هذه المدة.

وفى مجال تخفيف الضرائب عن الأهالى للظروف الاقتصادية لسكان القاهرة وضواحيها وشكواهم المتكررة فقد صدر أمر الخديوى إلى أحمد رشيد باشا ناظر المالية وذلك فى ٢٢ يناير عام ١٨٦٣ أى بعد عدة أيام من ولايته على مصر جاء فى الأمر :

«حيث إن الفردة (الضريبة) المقررة على سكان القاهرة وضواحيها قد سبق رفعها والتجاوز عنها مرة من قبل، والآن قد انهالت علينا الشكاوى من طرف الأهالى بخصوص رفعها، فبناء عليه ورأفة بأحوال الرعية اقتضت إرادتنا رفع هذه الفردة والتجاوز عنها كليا اعتبارا من تاريخ أمرنا هذا».

وأيضا فى مجال التخفيف عن التجار عندما شب حريق الحمزاوى فى مارس عام ١٨٦٣ ، وأمر بإقراض الذين أصابهم الحريق بدون فوائد وفى ذلك صدر الأمر :

«أمر بإقراض ثلاثين ألف جنيه من طرف الحكومة من غير فائدة لمدة عشر سنين للتجار الذين أصابهم حريق الحمزاوى، وتوزيعها عليهم بنسبة خسائرهم من الحريق ، حتى لا تتعطل أشغالهم التجارية، وتشكيل لجنة للأشراف على التوزيع مؤلفة من السيد عمر الزواوى ومصطفى السيوفى عن الحكومة المصرية، ولا واير وشركاه، وشارين وشركاه عن قنصل فرنسا وتودر ايتون وشركاه عن قنصل انجلترا والزايليو وشركاه عن قنصل النمسا ، وبوك هانسون عن قنصل بروسيا، وبيانس عن قنصل إيطاليا واجتماعهم تحت رئاسة رئيس مجلس التجارة بمصر، وإجراء هذا القرض بمعرفتهم تحت ضمان الحكومة وتوزيع المبالغ عليهم توزيعاً عادلاً.»

وفى مجال التوطن فى المناطق البرارى فى شمال الدلتا صدر الأمر بمساعدة الفلاحين لبناء مساكنهم واعطاءهم الأخشاب اللازمه لأسقف المنازل بالمجان .. وفيما يلى الأمر الخديو فى هذا الخصوص فى ١٩ نوفمبر عام ١٨٦٥ :

أمر كريم إلى مفتش الأقاليم البحرية ..

«قد تعلقت إرادتنا اجرى بنا دواير، وبجوارهم محلات لسكن النظار والمخزنجية والمعاونين أيضا فأطيان البرارى التابعة لدوايرنا ، الكاينة بمديريتى الغربية والدقهلية، الصادر عنها أمرنا لكم فى ١٧ جمادى الثانية سنة ٨٢ نمرة ١٤ عن زراعة أطيانها بالشرك، بحيث يكون البنا باعتبار كل ألفين فدان دوار واحد،

يشتمل على كم مخزن وبجواره كم محل لسكن الخدمة المحكى عنهم، فيقتضى المباشرة فى إجراء ذلك، وحيث أن الشركا الذين يزرعون الأطيان المذكورة بالشرك، ضرورى من توطنهم فيها على الدوام، لملاحظة ومباشرة أشغال الزراعات شركتهم ، فيلزم عليهم بنا المساكن اللازمه لإقامتهم بمعرفتهم لتوطنهم فيها بالجهات المذكورة، على وجه ما ذكر، وإذا لزم إليهم أخشاب للسقوفات تعطى لهم من طرف الدواير مجانا بدون مقابل وأصدرنا أمرنا لكم لتجدوا مقتضاه».

وفى مجال مساعدة الفلاحين بإعطاءهم التقاوى صدر الأمر الخديوى الصادر فى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٧٠ وفيما يلى نص الأمر ص (١٦٤)

«بعض أشخاص من أهالى الوجه القبلى يقدموا اعراضات، يطلبوا المساعدة لهم بإعطا تقاوى لأجل زراعتهم فى هذه السنة ، معتذرين بعدم فلاح زراعتهم فى العام الماضى، وبعدم اقتدارهم على مشترى تقاوى ، فمثل هؤلاء يقتضى لهم المساعده بعد تحقيق أحوالهم بالدقة كما ذكر، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لكى وصو له تبادروا بتحقيق أحوال من يطلبوا تقاوى لأجل زراعتهم فى هذه السنة، فإن تبين أنهم غير مقتدرين على مشترى التقاوى اللازمه لهم على أحوالهم وزراعتهم، ومن بعد طلوع المحصول تجروا تحصيل مقدار ما صرف لكل منهم من جنس التقاوى فى غير زيادة ولا نقصان، وهذا مساعدة وشفقة لحالهم».

فى غرة رجب سنة ١٢٨٧ ـ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٠ (سجل ١٩٣٧ أوامر عربية)

وزادت الحركة التجارية وبدأت فى الزيادة ففى عام ١٨٦٦ كانت الصادرات حوالى خمسة ملايين جنيه والواردات حوالى ضعف ذلك أما فى عام ١٨٧٥ كانت الصادرات أكثر من خمسة ملايين وتضاعف حجم الواردات إلى حوالى ثلاثة عشر مليون جنيه، وفيما يلى جدول يوضح تطور هذه الزيادة خلال عشرة أعوام :

السنة	الصادرات بالجنيه	الواردات بالجنيه
١٨٦٦	٤٦٦٢٢١٠	٩٧٢٣٥٦٤
١٨٦٧	٤٣٩٩٠٩٧	٨٦٢٣٨٧٤
١٨٦٨	٣٥٨٢٩٦٩	٨٠٩٤٩٧٤
١٨٦٩	٤٠٢١٦٠١	٩٠٨٩٨٦٦
١٨٧٠	٤٥١٢٩٦٩	٨٦٨٠٠٧٢
١٨٧١	٤٥١٢١٣٤	١٠٠١٩٠٢١
١٨٧٢	٥٥٠٥٩٩٥	١٣٣١٧٨٢٥
١٨٧٣	٦١٢٧٥٦٤	١٤٢٠٨٨٨٢
١٨٧٤	٥٣٢٢٤٠٠	١٤٨٠١٤٤٨
١٨٧٥	٥٦٩٤٨٢٠	١٢٧٣٠١٩٥

وكان يقوم بنقل هذه التجارة الواردة والصادرة أسطول تجارى مصرى ويقوم بخدمة هذه السفن بحارة وقباطين مصريين وكان حجم هذا الأسطول ٢٧ باخرة نقل وركاب ، وفيما يلى بيان بهذا الاسطول:

الباخرة دمنهور — الباخرة الجعفرية

الباخرة المحله — الباخرة سير

الباخرة دسوق — الباخرة المنصورة

الباخرة الرحمانية — الباخرة النجيلة

الباخرة التاكا — الباخرة الزقازيق

الباخرة الفيوم — الباخرة الحجاز

الباخرة البحيرة
الباخرة الشرقية
الباخرة الدقهلية
الباخرة طنطا
الباخرة شندى
الباخرة شبين
الباخرة سمنود
الباخرة المنيا

الباخرة الجزيرة
الباخرة ينبع
الباخرة القصير
الباخرة سواكن
الباخرة مصوع
الباخرة الكوفية
الباخرة جدة

العمران

«بلغ التجميل والتبديل فى القاهرة من بضع سنوات مدى . . على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير ومنذ ست سنوات لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة والنيل وبولاق إلا أرضا تغمرها مياه الفيضان ..

وهذا الحيز اليوم هو الحى الجديد الجميل ويسمى بحى الاسماعيلية .. وهكذا أُنشئتْ مدينة جديدة من المدينة القديمة حتى ضفاف النيل. فكأنها نشأت بفعل السحر» .

بيردسلى

قنصل الولايات المتحدة فى مصر



لم تشهد مصر حركة عمران منذ عهود الفراعنة مثل ما شهدت خلال الستة عشر عاما التى قضاها إسماعيل باشا واليا على مصر..

ففى هذه الفترة القصيرة من الزمن تم فيها إنشاء البنية الأساسية القومية لمصر كلها إذ تم إنشاء واستكمال ما بدأه محمد على من شبكة ترع وجسور وقناطر واستكمال نظام الملاحة النهرية من أهوسة، وما زالت ترعة الإبراهيمية فى الصعيد تشهد على قمة الهندسة ، أيضا العديد من الكبارى ، وفى مجال الطرق تم شق وتسوية شبكة الطرق الرئيسية فى مصر كلها ...

وتم استكمال شبكة السكك الحديدية فى الوجه البحرى (الدلتا) وبدأ فى إنشاء شبكة سكك حديد الصعيد وامتد بتنفيذ الشبكة حتى المنيا وبدأ فى إنشاء باقى الشبكة إذ أنه كان قد وضع خطوطها الرئيسية وخطط لها. ووضع البنية الأساسية لعدد من المدن وعلى رأسها القاهرة والاسكندرية والعديد من مدن الدلتا مثل دمنهور وطنطا والمنصورة والزقازيق وبنها وكذلك مدن الصعيد بداية بأسيوط والمنيا وسوهاج وبنى سويف وقنا والأقصر وأسوان والفيوم، هذا علاوة على إنشاء مدن قناة السويس الجديدة. وهى كما يطلق عليها بلغة العصر المجتمعات الجديدة وعلى رأسها بورسعيد والاسماعيلية وأيضا امتداد وتوسعات (ضاحية) السويس والذى سميت فيما

بعد ببور توفيق ووضع تخطيط ضاحية بورسعيد التى أنشئت على الضفة الشرقية لقناة السويس والتى اشتهرت فيما بعد ببورفؤاد ... وهى المدن التى ما زالت تعتبر من الامثلة الراقية للمدن فى مصر بل وفى العالم.

وإن نسينا لا ينسى التاريخ قناة السويس .. الممر العالمى والشريان الدولى للنقل والتجارة والحضارة ، والتى حققت وما زالت تحقق سنويا دخلا يقارب مليار دولار يؤمن أساسيات الطعام لكل شعب مصر من خبز.

وفى الصفحات التالية سوف نستعرض ما حققه إسماعيل من إنشاءات وبنية أساسية قومية لمصر كلها استمرت ومستمرة حتى الآن لأكثر من قرن من الزمان تخدم مصر كلها وتتحدى الزمن والتكنولوجيا الحديثة.

وبدأ إسماعيل عهده بإنشاء نظارة وزارة الأشغال العمومية .. وفيما يلى نص الأمر الكريم إلى نوبار باشا ناظر الأشغال العامة:

«ليس بخاف عليكم أن أساس تقدم بلادنا هذه الزراعة والفلاحة فقط، وحيث أن الاهتمام بالزراعة على أحسن صورة بيتوقف على إنشاء القناطر والبرابخ والترع والجسور والعمليات المماثلة لذلك، وأن هذه الإنشاءات المقتضى إيجادها وإقامتها فى الأقاليم وتسوية وترتيب الأبنية اللازم إقامتها فيما بعد بمدينتى مصر المحروسة والاسكندرية كما ينبغى ، يحتاج إلى جهود ودقة، فبناء عليه قد إقتضت المصلحة تشكيل نظارة بإسم ديوان الأشغال العمومية، ورأينا من المستحسن إحالة القناطر الخيرية إلى هذه النظارة ، كما يجب أن يكون الأرناطو (التنظيم) وقلم إدارة الهندسة من فروع الديوان المذكور» .

واضطلعت وزارة الأشغال بواجباتها فكان أن تم إنشاء حتى عام ١٨٧٢ عدد ١١٢ ترعة مجموع مكعبات الحفر فيها ١٢٣ مليون متر مكعب ، على رأس القائمة :



ميدان ابراهيم باشا (ميدان الأوبرا) وتظهر الأوبرا وعن بعد حديقة الأزبكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترعة الإسماعلية بطول ١٤٠ كيلو مترا بمكعبات حفر قدرها ١١ مليون متر مكعب .. وهى الترعة التى تبدأ من النيل جنوب القناطر الخيرية يمين شبرا حتى الاسماعيلية مرورا بمحافظات القليوبية والشرقية والاسماعيلية وبورسعيد والسويس وترعة الابراهيمية فى الصعيد بطول ١٥٠ كيلو مترا مكعبات قدرها ٣٩ مليون متر مكعب وترعة البحيرة بطول ٤٢ كيلو متراً بمكعبات حفر قدرها ١٠ مليون متر مكعب .. وهذه الترعة تروى الأراضى غرب فرع رشيد وكل أراضى البحيرة حتى الاسكندرية هذا علاوة على العديد من الترع التى تتفرع من هذه الترع الرئيسية بمكعبات حفر تقدر بحوالى ٧٣ مليون متر مكعب بأطوال أكثر من ألفى كيلو متر على امتداد خريطة مصر، هذا علاوة على تطهير جميع الترع وتعميق الكثير منها، غير ضبط الجسور وتسويتها لضبط مياه الفيضان وخصوصا بعد فيضان النيل عام ١٨٧٤ والتى كانت تحظى بمتابعة الخديو لهذا الفيضان بنفسه ، وما تم من إنقاذ ذلك للبلاد من كارثة محققة وفى هذا الصدد يقول بيردسلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى رسالته فى ٢٤ يونيه سنة ١٨٧٥ :

«إن وجود الخديو فى الصيف الماضى، وما أبداه من نشاط وعناية قد أنقذ البلاد من أعظم كارثة هددته فى هذه السنوات الأخيرة وهو أخطر فيضان للنيل حدث منذ نصف قرن»

وفى مجال الكبارى فقد تم انشاء العديد من الكبارى بلغ عدد الكبارى منها ٤٢٦ كوبرى منها ٢٧٦ كوبرى فى الوجه البحرى و١٥٠ كوبريا فى الوَجه القبلى.

وامتدادا لعصر محمد سعيد عم الخديو إسماعيل الوالى السابق كان الأسطول التجارى المصرى يجوب البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر

فى حركة مستمرة فى نقل البضائع .. وكان ضروريا الاهتمام بالموانى التى تخدم هذه الحركة . وأيضا استكمالا لقناة السويس التى كانت حينذاك فخاراً لمصر . فكان ضروريا إعطاء ميناء الاسكندرية كبوابة شمالية للبحر المتوسط وميناء السويس كبوابة شرقية لمصر على البحر الأحمر الأهمية المناسبة والاستثمارات الكافية، وبالفعل ابتدأت الأعمال التحضيرية لميناء الاسكندرية فى مايو ١٨٧٠ ـ أى بعد افتتاح قناة السويس بعام واحد ـ ووضع الخديو إسماعيل الحجر الأساسى الأول للأبنية الداخلية فى ١٥ مايو ١٨٧١ وفى اليوم ذاته. بدأ فى وضع الكتل الحجرية الصناعية لحاجز الأمواج. وهذا المشروع تكلف حوال مليونين من الجنيهات أو بالتحديد (٢,٣٠٠,٠٠٠) جنيه وانتهى تنفيذه فى حوالى عام ١٨٧٦ .

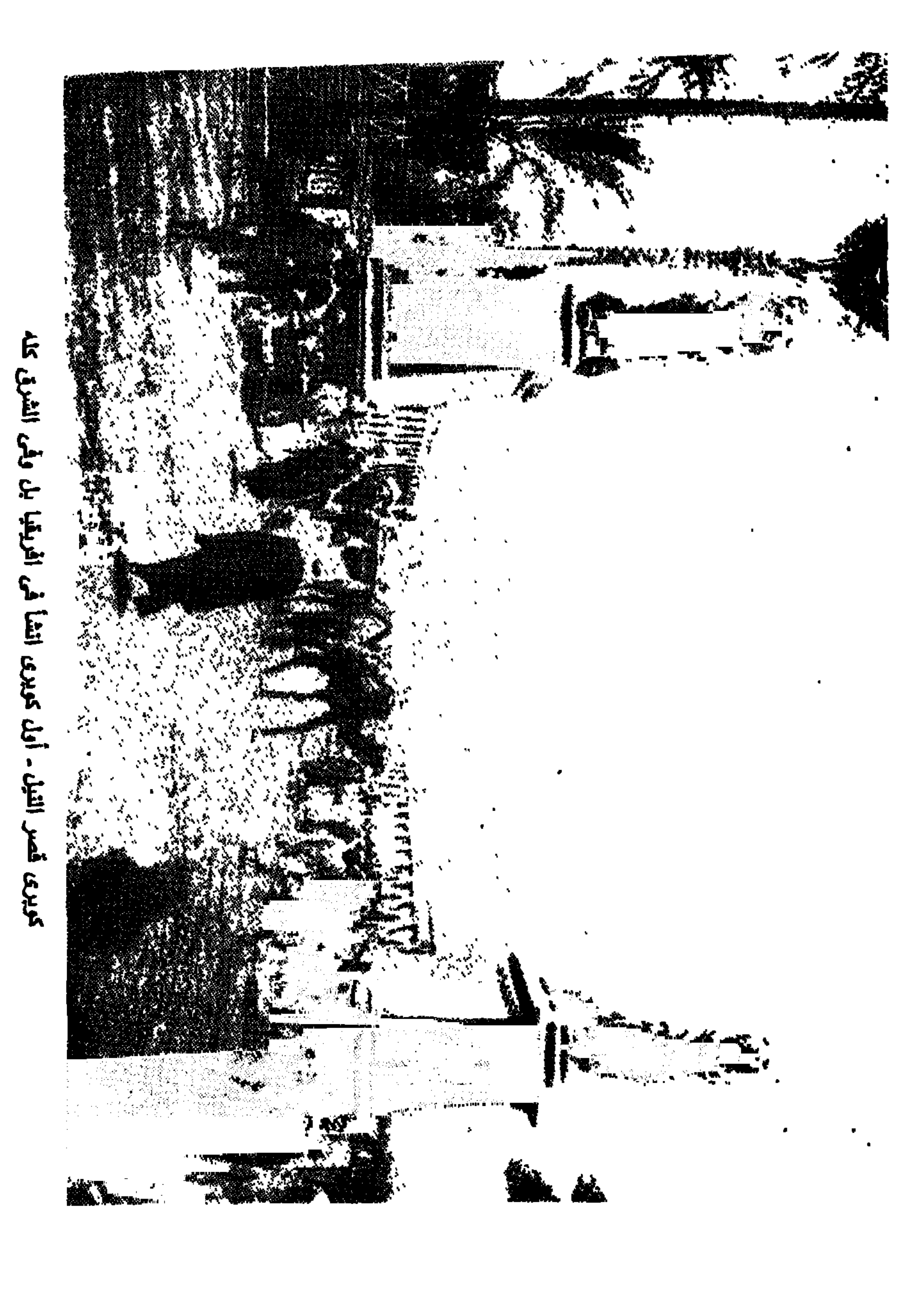
أما الأعمال الخاصة بميناء السويس فقد بدأت فى عام ١٨٦٦ أثناء حفر قناة السويس وانتهت فى عام ١٨٧٤ ، وقدرت تكاليفها بحوالى مليون جنيه أو بالتحديد (١,٣٠٠,٠٠٠) جنيه كما أنشأ فى نفس الفترة الحوض العائم وتكلف مائة وثلاثين ألف جنيه.

وكان ضروريا لانتظام حركة الملاحة البحرية فى البحرين المتوسط والأحمر الاهتمام بالفنارات وفيما عدا فنارة الاسكندرية التى أعيد تناولها بالاصلاح والتجديد فإن جميع الفنارات أنشئت فى الفترة فيما بين ١٨٦٣ حتى ١٨٧٢ بما فيها فنارة السويس ، وكانت على أحدث طراز وتكنولوجيا حينذاك، التى حلت محل الفنار الطائفة وهى كانت طبقا للنظام القديم، ومع إنشاء هذه الفنارات انتظمت الملاحة وأصبحت الحوادث نادرة إذا قيست بغيرها من البلاد البحرية، ففى البحر الأحمر بوجه خاص وهو البحر الذى كان الملاحون يخشون مخاطره، لم يغرق فى سنة ١٨٧٢ إلا سفينتان

من السفن الشراعية الخفيفة . وأصبح عدد الفنارات فى هذه الفترة ثمانى فنارات فى البحر الأحمر وثمانى أخرى فى البحر المتوسط وتكلفت هذه الفنارات مائة وسبعين ألف جنيه أى كان تكاليف كل فنارة حوالى عشرة آلاف جنيه مصرى حينذاك.

وفى مجال النقل الداخلى - سواء كان نقلا نهريا أو نقلا بالسكك الحديدية أو النقل بالوسائل التقليدية - فإن إسماعيل لم يأل جهدا فى العناية بكل هذه الوسائل وقد اطلعنا من قبل الاهتمام بالنقل النهرى بتطهير الترع وتجهيز الجسور وأيضا تجهيز المجارى المائية بالأهوسة والموانى النهرية مثل ميناء بولاق وميناء أثر النبى. ولكن السبق على مستوى العالم أجمع هو اهتمام إسماعيل بإنشاء خطوط جديدة للسكك الحديدية كان يتطلع أن مصر ستجنى الكثير من الفوائد من إنشاء هذه الشبكة ، مما يعوضها عن التضحيات التى تحملتها .. وفى هذا المجال تطالعنا الوقائع الرسمية فى عددها الصادر فى ٤ ربيع آخر عام ١٢٨٤ هجرية الموافق ٥ أغسطس عام ١٨٦٧ ميلادية : من إسماعيل إلى وفد من شركة الشرق «إن وسائل النقل فرع من فروع الإدارة ما فتئت أوجه إليه عناية فائقة، وسينتهى عما قريب إنشاء خطوط جديدة للسكك الحديدية مما يقصر المسافات تقصيراً آخر. ونأمل أن البلاد ستجنى من فوائدها. ما يعوض عن التضحيات التى تحملتها، وهى تضحيات تعلمها الشركة كل العلم» .

وسوف نستعرض ما حققه ونفذه إسماعيل من خطوط فترة حكمه، فخلال حكم عباس وسعيد لم يكن تم من خطوط إلا خط الاسكندرية القاهرة بطول مائتى كيلو متر وهو ثالث خط تم إنشاؤه فى العالم .. الأول كان فى بريطانيا والثانى كان فى الولايات المتحده الأمريكية والخط الرابع فيما بين القاهرة والسويس بطول حوالى ١٤٠ كيلو متر بطول أربعين كيلو متر.



كوبرى قصر النيل - أول كوبرى أنشأ فى أفريقيا بل وفى الشرق كله

والآن عزيزى القارئ أسمح لى أن نعدد أطوال الشبكة التى تمت فى عصر إسماعيل منذ عام ١٨٦٣ حتى عام ١٨٧٢ ، أى العشر سنوات الأولى من حكمه.

إزدواج الخط فيما بين القاهرة - الاسكندرية مائتان ٢٠٠ كيلو متر
إزدواج الخط فيما بين الزقازيق والاسماعيلية ثمانون كيلو مترا

خط قليوب المنصورة بطول اربعين كيلو متر

خط الاسماعيلية - السويس بطول ثمانين كيلو مترا

خط طنطا - المنصورة حوال خمسة وخمسين كيلو مترا

خط دسوق - شربين بطول حوال مائة كيلو مترا

خط زفتى - دسوق حوال مائة كيلو مترا

خط دسوق - دمنهور بطول حوال ثلاثين كيلو مترا

خط طنطا - شبين الكوم حوال خمسة وثلاثين كيلو مترا

خط طلخا - شربين - دمياط جوال أربعين كيلو مترا

خط امبابه - ايتاى البارود بطول حوال مائة وخمسة وأربعين كم

خط الفيوم - وأبو كساه بطول حوال سبعين كيلو مترا

القاهرة حتى أسيوط بطول حوال ثلاثمائة وثلاثين كيلو مترا هذا علاوة على بعض الخطوط والوصلات مثل العباسية وأبا الوقف.

وكل هذه الخطوط فى إجمالها تعتبر تحديا فى الاصرار على التنفيذ فقد بلغت مجموع هذه الاطوال حوالى الف وستمائة كيلو متر.

وسوف نطالع معا التقرير المقدم من الحكومة المصرية إلى مؤتمر الإحصاء الدولى وذلك فى عام ١٨٧٦ :

تقرير مقدم من الحكومة المصرية إلى مؤتمر الإحصاء الدولى فى العشر السنوات الواقعة ما بين سنة ١٨٦٣و١٨٧٢ ، أنشئت شبكة السكك الحديد المصرية؛ فقبل تولى الخديو العرش كانت حكومتا سلفيه قد أنشأنا ٢٤٥ ميلا من السكة الحديد بما فيها خط القاهرة ـ الاسكندرية، الذى بدأه عباس باشا، وخط القاهرة ـ السويس الذى اتضح فيما بعد أنه ردىء فعدل عن استعماله، فهذا الرقم أى ٢٤٥ ميلا (أو بالأحرى ١٥٥ ميلا اذا لم نعتبر إلا الخطوط القديمة المستعملة اليوم) ، قد رفعته حكومة الخديو الى ١١١٢ ميلا، فيكون تضاعف سبع أو ثمانى مرات، وفوق ذلك ستستغل عن قريب ٢٠٨ أميال جديدة؛ فتزيد هذه النسبة المشرفة على ارتفاعها الحالى، وستلحق بها أعمال جديدة على الفور فتبلغ الشبكة المصرية الأوج فى نمائها.

وهناك مشروع عظيم سيتوج تلك المنشئات الواسعة ، هو من ابتكار الخديو، ولا يزال تحت البحث . كانت سكة حديد السودان موضع دراسات متواصلة بدئت فى سنة ١٨٦٤ واستؤنفت أخيرا، وقد اتضح اليوم أنه يمكن انشاء هذا الخط بمائة مليون من الفرنكات. أما أثر هذا المشروع فى نمو الثروة العامة فيفوق الحصر.

ومع استبعاد هذا المشروع العظيم الذى سيكون تتمة جميلة لشبكة السكك الحديدية المصرية ويزيد أهميتها زيادة عظيمة، نرى من الفائدة الموازنة بين هذه الشبكة كما أنشأها الخديو وبين خطوط السكة الحديد فى الخارج مما لدينا من خطوط حالية طولها ١١١٢ ميلا (١٧٨٠ كيلو مترا) ، حتى بغض النظر عن المزدوج منها، يفوق شبكات السكك الحديدية فى هولندا (١٤٥٨ كيلو مترا) وسويسرا (١٤٧٢ كيلو مترا) والدانمارك (٨٧٦ كيلو مترا) والبرتغال (٧٨٧) ورومانيا (٨٠٦) وتركيا (٢٩٨) واليونان (١٢ كيلو مترا) .

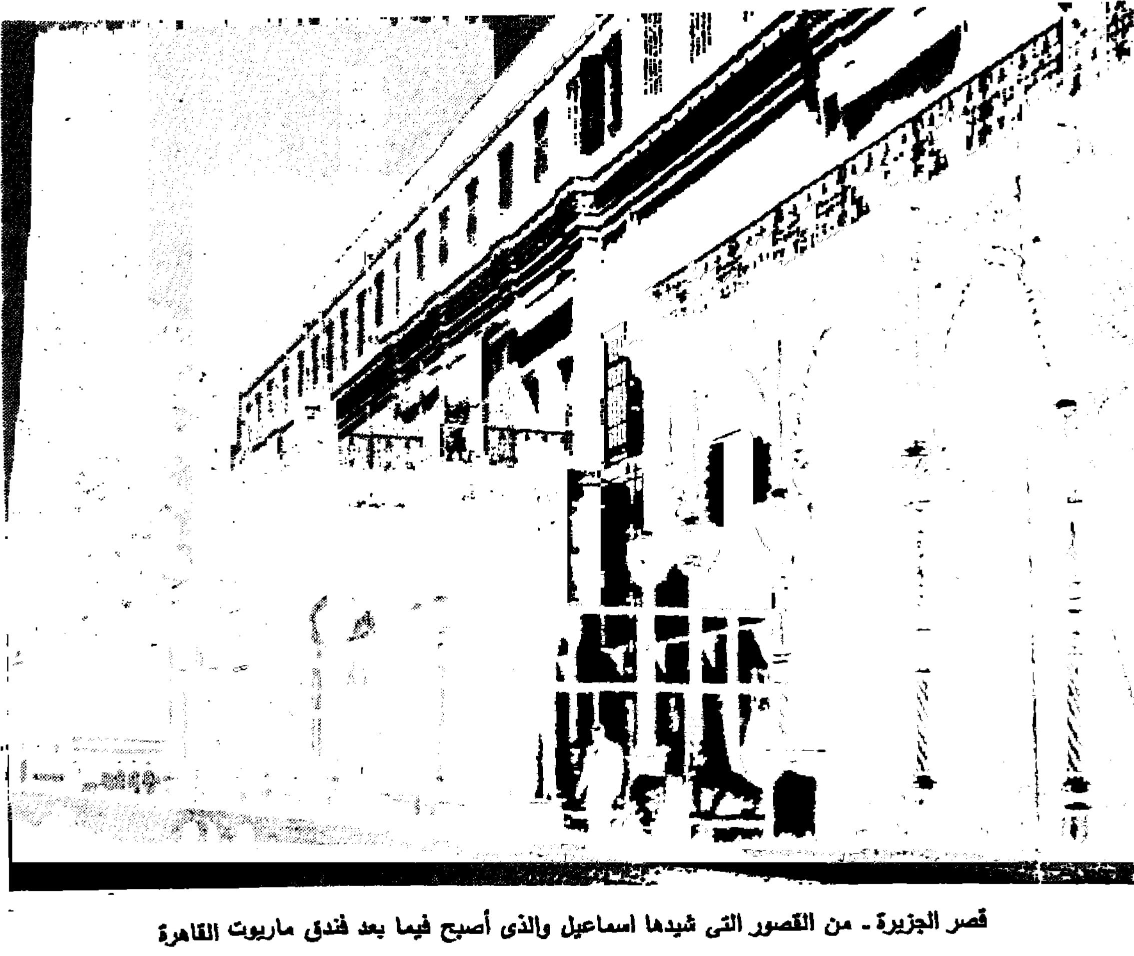
وبالقياس الى عدد الأهالى فى مصر وقدره ٥٢٥٠٠٠٠، يكون لكل مليون من الأهالى ٣٣٩ كيلو مترا. وهى نسبة تفوق النسب فى ايطاليا (٢٣٩ كيلو مترا) والنمسا والمجر (٣٣٥) واسبانيا (٣٣٠) والبورتغال (١٩٧) ولا تقل إلا عن نسب البلجيك (٥٩٨) وانكلترا (٧٩٣) وهولندا (٤٠٠) وألمانيا (٥١٤) وسويسرا (٥٤٩) وفرنسا (٤٨٣) والدانمارك (٤٨٧) والسويد (٤٤٠ كيلو مترا).

الخدمات التى تؤديها السكة الحديد للبلاد، خدمات عظيمة؛ وهى لابد نامية كلما شعر الأهالى بمزاياها . وحسبنا عقد مقارنة بين مصر وروسيا فى شأن ما نقلت الخطوط الحديدية من المسافرين. ففى سنة ١٨٧١ نقلت الخطوط الحكومية وغيرها بروسيا ١٨٠٣٧٧١٨ مسافرا؛ فاذا اعتبرنا أن عدد السكان ٧١٨٧١٤٦٩ (فيما عدا سيبريا) كانت النسبة ٢٣٣ مسافرا لألف نفس. وإذا اعتبرنا أن طول الخطوط المستغلة ٢١٢٤٥ كيلو مترا، كانت نسبة المسافرين إلى طول الخطوط ٨٤٠ مسافرا لكل كيلو متر، وكانت هذه النسبة فى مصر للسنة عينها ٣٤٤ مسافرا لألف نفس و١٠٠٧ مسافرين لكل كيلو متر.

وإذا غض النظر عن حركة الترانسيت الدولى، وهى حركة تضيف عاملا استثنائيا إلى عوامل الحركة فى مصر، كانت النسبة مع ذلك ٣٤٠ مسافرا لألف نفس، ٩٩٣ مسافرا لكل كيلو متر.

فى سنة ١٨٧٦ (ملف ٢٣ / ٤ عابدين) ـ ترجمة

وفى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٦٤ تم توقيع عقد شراء مكاتب البريد من المسيو موتسى للحكومة المصرية .. وفى ١٤ يناير ١٨٦٥ صدر أمر الخديو بإقرار الصفقه وضم أرباح مكاتب البريد إلى إيرادات الدولة، وكان هذا بمثابة نواة لإنشاء مصلحة البريد، وتم استخدام طوابع البريد فى ٨ أكتوبر عام ١٨٦٥ .



قصر الجزيرة - من القصور التى شيدها اسماعيل والذى أصبح فيما بعد فندق ماريوت القاهرة

وسوف نطالع معاً الأمر الكريم من الخديو إلى نظارة المالية فى شأن إنشاء إدارة البريد واستخدام طوابع البريد:

«لما كان فى استعمال طوابع البريد بدلا من الأجرة ، كما هو جار فى أوربا سهولة وفائدة، فقد طبعت طوابع البريد اللازم استعمالها وتداولها فى هذه الديار بأوربا، بإشراف موتسى بك مأمور- ادارة البريد المصرى واستحضرت أخيراً، ولما كانت هذه الطوابع قائمة مقام النقد بأن تتداول فى الأخذ والعطاء بقيمتها المقررة، فقد أوصينا المأمور المشار إليه بأن يسلم الطوابع المعلوم مقدارها التى استحضرها إلى المالية، لتحفظ بها تمهيداً لأخذ المقدار الذى يحتاج إليه من المالية أولاً فأول وتقديم الإيصال من الذى يأخذها من خزينة ديوان الأشغال العمومية إلى المالية كلما ورد على الخزينة المشار إليها الأثمان المتجمعة من صرف الطوابع المذكورة وقد أصدرنا أمرنا هذا لتنفذوا مقتضى ما أسلفنا فيه».

هذا وفى نفس الوقت فى عام ١٨٦٥ توسعت خدمة البريد، فتم فتح مكتب مصرى للبريد فى إستانبول وفى جدة وأزمير عام ١٨٦٦ وفى غاليبولى وبيروت وقوله وسالونيك وطرابلس الشام عام ١٨٧٠ وفتحت مكاتب عديدة للبريد فى كل أرجاء مصر فتحت مكاتب أخرى فى القاهرة فتحت فى عام ١٨٦٥ والدلتا فى عام ١٨٦٦ وفى مصر الوسطى فى كل المدن والعواصم الرئيسية حتى المنيا عام ١٨٦٧ وفى جنوب الصعيد تم افتتاح المكاتب حتى عام ١٨٧٣، وفى السودان عام ١٨٧٧ .. وفى هذا ريادة مصر فى الخدمة البريدية فى العالم .. فقد بادرت مصر فى تأسيس الاتحاد العام للبريد (الاتحاد الدولى فيما بعد) وفى المؤتمر الأول لاتحاد البريد الذى عقد فى برن عاصمة سويسرا فى أول يوليو سنة ١٨٧٥ وتم الاتفاق على معاهدة لتبسيط وتوحيد خدمة البريد.

وبهذا الحجم من الأعمال التى تمت فى مصر فى فترة قصيرة للغاية، فى الحقيقة أنه تحد للزمن وللواقع الذى كان يعيشه إسماعيل وسط المؤامرات المحيطة إن كان من السلطان عبد العزيز من ناحية أو من الدول الأوربية من جهة أخرى.

ومع كل هذا الذى أنجزه فى مصر وبنيتها الأساسية ، فإن إسماعيل لم ينس أن ينشئ مركزا دائما لحومته تلتف حوله الوزرات، فهو أول من نزل القلعة وأقام فى قصر عابدين، وقرر أن يجعل القاهرة عاصمة ملكه ، بل أيضا يجعلها عاصمة تليق بمصر، لذلك أنفق أموالا كثيرة، وبدأ الجهود فى همة قلما قام بها الحكام المعاصرون حتى فى أوربا، فعكف على العمل فى خمس سنوات لتجميل هذه المدينة التى يمكن تفضيلها حينذاك على عدة عواصم أوربية وفى هذا الصدد يقول بيردسلى قنصل الولايات المتحدة الأمريكية إلى وزارة الخارجية الأمريكية :

من بيردسلى قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية

بلغ التجميل والتبديل فى القاهرة من بضع سنوات، مدى يصعب على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير.

وسكان القاهرة نصف مليون نسمة؛ وهى قائمة بالقرب من المقطم ، على مسيرة ميل ونصف من النيل. ومنذ ست سنوات لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة والنيل وبولاق الا أرضا واسعة منخفضة، تغمرها مياه الفيضان ولا تزرع منها غير بقع عند انحسار هذه المياه. وهذا الحيز اليوم هو الحى الجديد الجميل، ويسمى بحى الاسماعيلية، تكريما لسمو الخديو. وقد ردم على ارتفاع يتراوح بين ستة أقدام وثمانية بالأتربة التى جلبت من أنحاء المدينة، وقد خططت فيه طرق واسعة لسير العربات، تحف بها الأشجار ومنحت الأرض بالمجان لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم.

وهكذا أنشئت مدينة جديدة تماما تتألف من أبنية رائعة، تمتد من المدينة القديمة الى ضفاف النيل فكأنها نشأت بفعل من السحر.

كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم الأزبكية، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوربية، يتألف منها الحى الافرنجى. ولم تكن هذه البقعة أيام الفيضان الا بحيرة واسعة فاذا انحسرت المياه أصبحت مأوى للكلاب، ومسرحا للجنايات ومجتمعا للسوقة، وقد استحالت اليوم الى حديقة عمومية رائعة الجمال ذات ممرات رملية وطرق ظليلة ومروج خضراء. ومما يأخذ فيها بالألباب، بحيرة صناعية هى آية فى الجمال؛ وتحف بهذه الحديقة أبنية أخاذة المنظر منسقة على طراز واحد.

وفى داخل المدينة، خطت طرق جديدة واسعة، توفر سبل المواصلات وتجلب الهواء والنور إلى أحياء تزدحم بالسكان، وتوفر الآلات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها، مقابل مساهمة فى النفقات اللازمة. وهناك مصنع للغاز يورد ستة آلاف متر مكعب فى اليوم ينير الطرق والميادين العامة.

والطرق الجديدة كلها مرصوفة رصفا متقنا، ومحفوفة بالأفاريز، وبها مجار. وأنشئ فى شمال المدينة حى جديد اسمه الفجالة؛ وفى الشمال الشرقى خط حى جديد آخر. وتجرى الأعمال لردم الحفر ولتعبيد الأرض؛ وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة نقلت اليها من أطراف المدينة على مر الأحقاب ويخترق هذين الحيين طريق واسع، يوصل الى موقع هليوبوليس القديم والى العباسية ، على طرف الصحراء حيث تقوم المدارس الحربية.

وكذلك أنشئ طريق جميل جدا للعربات ينتهى الى الأهرام، ويجتاز الجسرين الجديدين فى الجزيرة؛ ويجرى العمل على تحويل العمل على تحويل هذه الجزيرة تحويلا سريعا الى حديقة عمومية غناء وحديقة للحيوانات . وسيقام فيه أيضا المتحف المنوى انشاؤه عن قريب، وكذلك

يشرع فى انشاء حديقة شاسعة شرق الجزيرة. وشيد الخديو مسرحا كبيرا جدا للأوبرا الايطالية وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية. وبنيت حنفيات عمومية كبيرة ومساجد وقصور عديدة.

وفى كل النواحى نشاهد آيات النشاط والتحسين نذكر نشاط الغرب أكثر مما نذكر عادات الشرق.

وكذلك قام بأعطاء حق امتياز إمداد مياه الشرب إلى سكان القاهرة إلى شركة (قومبانية مياه المحروسة) وأعطى الحق للبلدية فى إمداد المناطق المختلفه بالمواسير والحنفيات اللازمة للأهالى. وقام إسماعيل باعطاء شركة ليون قطعة أرض على مشارف مدينة القاهرة لإقامة مشروعها عليها وكان حق امتياز الشركة فى القاهرة المحروسة لمدة خمسة وسبعين عاماً.

وهكذا نجد أن إسماعيل كان مهتما بالبنية الأساسية للمدن الكبرى وكذلك بتجميلها ونظافتها وصيانتها.

وفى مجال إنشاء المبانى العامة فكما جاء فى خطاب بيردسلى القنصل الأمريكى إلى وزير خارجيته أن مبانى منطقة العتبة - مبانى المحطة المركزية للمطافى - ومبنى هيئة البريد ومحلات صيدناوى وعمر افندى والسوق الرئيسى (سوق العتبة الخضرة حاليا) كل هذه الميانى وغيرها الكثير كان قد خطط له وتم الانتهاء منها بعد تنازله عن العرش .. هذا علاوة على ملاجئ الأيتام وتكية للنسوة العاجزات، وكذلك تم بناء عشرين مسجداً جديداً وعلى رأسها مسجد الرفاعى والتى قامت ببنائه الوالدة الباشا والدة الخديو ..

وتم إنشاء عدة قصور منها قصر الزمالك (فندق ماريوت حاليا) وقصر الأهرام (فندق ايرورى مينا هاوس حاليا) وكانت هذه القصور لاستقبال الملوك وتم إنشاء كوبرى على النيل فى وسط القاهرة ليربط جزيرة الزمالك بالقاهرة.

(كوبرى قصر النيل حاليا) تكلف أكثر من مائة ألف جنيه مصرى، وبدأ المرور عليه فى فبراير عام ١٨٧٢ طوله ٤٠٦ أمتار من القنطرة الأولى إلى القنطرة الأخيرة يتجزأ إلى ثمانية أجزاء كما قال ريتى بك فى كتابه :

الجزء المتحرك طوله ٦٤ مترا من ناحية المدينة.

الجزءان النهائيان طول كل منهما ٤٦ مترا

وخمسة أجزاء متوسطة طول كل منها ٥٠مترا.

وكان للاسكندرية أيضا نصيب فى التخطيط والتجميل وأيضا رصف الطرق وتبليطها، فتم تبليط الحى التجارى على مساحة مائة ألف متر، وكذلك تبليط داخل المدينة بمساحة حوال عشرة آلاف متر، وكذلك إعادة بناء رصيف ترعة المحمودية.

وكذلك بعض المبانى العامة، مثل بناء بورصة القطن - وتخطيط ميدان محمد على (ميدان المنشية حاليا) الذى يتوسطه تمثال محمد على باشا.

وأيضا تم تخطيط منطقة السوق وربطها بمنطقة الميناء وتم بناء السوق على أحدث طراز.

وكان للمحافظة على الصحة العامة وتنظيم عمليات الذبح فى إطار صحى وقانونى، فتم بناء السلخانة، وقد بلغت التكاليف فى هذه الأمور حوالى أربعمائة وستين ألف جنيه تقريبا.

وتم نقل ملكية شركة المياه بالاسكندرية إلى الحكومة المصرية (البلدية) بمبلغ قيمته حوالى ثلثمائة وخمسون ألف جنيه ،وكذلك تم تنظيم الإنارة بالغاز فى المدينة ، وكان الامتياز ممنوحا للمسيو ليون لمدة خمسة وسبعين عاما.

وكان الاهتمام بمدينة الاسكندرية ومشروعاتها موازيا للاهتمام بالمشروعات وتطوير مدينة القاهرة. فتم تسوية شوارع الاسكندرية حتى

ترعة المحمودية، والاهتمام بكنسها ورشها وتنظيفها أولا بأول وترتيب الخدمه اللازمة لهذه الأشغال ، وتنظيم الأنفار العمال اللازمين لهذه الأعمال وفى هذا الصدد يقول الأمر الكريم الصادر من الخديو إلى محافظ الاسكندرية فى ٢ فبراير عام ١٨٦٣ :

«... تسوية شوارع الاسكندرية لحد المحمودية، والاهتمام بكنسها ورشها وتنظيفها، وترتيب الخدمه اللازمه لهذه الأشغال وتنظيم الأنفار اللازم ترتيبها للضبطية ، علاوة على الموجود، حسب الأمر الصادر بتاريخ ٦ شعبان عام ١٢٧٩ وبنمرة ١١ والحضور إلى الديوان الخديوى باستصحاب الترتيبين المذكورين» .

وهكذا يتضح اهتمام الخديو إسماعيل بكل صغيرة وكبيرة فى مصر وإن هذا الأمر صدر بعد شهر واحد من ولايته على مصر، واستمرت متابعة إسماعيل لكل الإنشاءات فى مصر كلها وفى هذا الصدد يقول القومندان نابيير فى مناسبة تسليم وسام نجم الهند من ملكة بريطانيا إلى الخديو إسماعيل فى ٧ ديسمبر عام ,١٨٦٨

«أن كل عالم مطلع على التاريخ القديم يميل كل الميل إلى تقدم بلاد مصر التى منها اقتبست سائر الممالك أنوار التمدن وينشرح صدره من درجة العمارية والرفاهية التى بلغتها الآن بما استجد فيها من سكك الحديد وسائر أنواع التحسين والتقدم ولا يخفى أن جل مرغوب سعادة خديو مصر بما توجهت اليه أفكاره الخيرية السامية من إيجاد التحسينات الجليلة بمحروسة مصر وما أنشأه بها من العمارات الجديدة وفتح الشوارع المتسعة الحسنة العديدة هو جعل هذه المدينة باريز بلاد المشرق وحيث تصديت هنا لذكر التحسينات التى أوجدت وأنشئت فى عهد خديوها المتحلى بأكمل حلية التدبير، فى مدة وكلاء دولته الفخيمة فأرجوكم أيها الحاضرون الاذن بأن أشرب هذا القدح محبة منى فى سعادة شريف باشا صاحب الهمم والمعارف الكلية الحائز لرتبة صدر صدور الدولة المصرية ومحبة فى كل من سائر صدور ووكلاء الحكومة الخديوية.»

فكان لإنشاء مجلس الشورى النواب، أثر عميق فى الحياة الاجتماعية إذ أنه هز المجتمع المصرى من أقصاه إلى أقصاه شرقا وغربا فقد تقابل تحت قبة المجلس المصريون النوبية والصعايدة والشراقوه والبدو والاسكندرانية.

وخلال فترة من حياة المجلس فى عهد إسماعيل كان من أعضاء المجلس بعض السودانيين يمثلون الجنوب ..

فكان المجلس يعج باللهجات المختلفة ..

وكانت الملابس المختلفة والأزياء المتباينة ..

كل هذا بمثابة انصهار للمجتمع المصرى وايضا كان لصدور الصحف أثر كبير فى تداول الأخبار وأيضا اللقاءات خلال الجمعيات العلمية والثقافية والمحاضرات والمؤتمرات والمعارض والمتاحف ناهيك عن المدارس ، ودخول الفتيات المدارس .. هز المجتمع من أعماقه.

السودان وافريقيا

«لجميع المصريين فكرة سيئة عن السودان فإنهم يتصورون أوفدهم اليه للتخلص منهم ، يحب ضباطنا العاصمة وقد أصبحت بالفعل جذابة جدا ، وستزول هذه الأوهام بإنشاء الخط الحديدى وليتأكد الجميع أنى سأنهض بالسودان»

الخديوى إسماعيل



كان إسماعيل مدركا أهمية وحدة وادى النيل ، من منطلق أن منابع وأراضى أعالى النيل هى منابع وأصل مصر وحضارتها، فإسماعيل كان مدركا لمقولة هيرودوت الشهيرة «أن مصر هبة النيل»، وكان واعيا أيضا للدرس تلقاه كل من جده ووالده من أوربا مجتمعة فى موقعة نفارين البحرية من جهة ومن درس كوتاهية من جهة أخرى، إلى أن تم ترسيم الحدود الإدارية (لولاية مصر ـ وليست الحدود السياسية ـ وذلك طبقا لمعاهدة لندن).

أيا كان الأمر فقد سعى إلى تأمين مستقبل مصر فى جنوبها أو مصر الجنوبية ـ أو بلاد وادى النيل الغنية فى الجنوب ـ وهنا المقصود بالسودان هم أهل مصر فى الجنوب سمر البشرة ، أو السود أو إجمالا السودان .. وهنا يجدر أن نرجع إلى أوراق التاريخ الموغلة فى القدم، عندما وحّد مينا (نارمر) بين شطرى مصر فى الشمال والجنوب ، وإن إسماعيل بدوره كان يسعى إلى وحدة وادى النيل المصرى ـ هكذا ـ تحت تاج واحد لتكون امبراطورية مصر ـ بكامل أراضيها من أعالى النيل فى وسط أفريقيا حتى مصبات أفرع النيل فى البحر المتوسط، وبكامل شعبها السمر فى الشمال والأكثر سمرة والسود فى الجنوب.

هكذا كانت أحلام الخديو إسماعيل كبيرة، ورؤياه واسعة على امتداد خريطة أوربا وآسيا وأفريقيا. وكانت أحلامه لهذه التنمية الشاملة على امتداد وادى النيل والتى سوف نستطلعها فى هذا الفصل.

تأكد لإسماعيل أن هذه التنمية مرتبطة بقوة تنفيذية هائلة، هكذا فكر إسماعيل فى الاهتمام بالجيش ليكون الجيش هو الساعد الذى ينفذ به مشروعات التنمية فى السودان .. ومن خلال هذا الجيش يستطيع تزويد الإدارة فى السودان بكوادر إدارية وفنية من الجيش، وكان الجيش حينذاك خلال الأيام الأخيرة لحكم محمد على ، وتدخل الآستانة فى أمور الجيش بموجب معاهدة لندن فى عام ١٨٤١ ، وخلال حكم عباس الأول والوالى محمد سعيد من بعده ـ هكذا لمدة حوالى ثلاثين عاما من عام ١٨٤٠ حتى عام ١٨٦٩ ، خلالها ترهل الجيش .. وبذلك فكر إسماعيل فى استقدام بعض القواد الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين أيضا ، وبالفعل استقدم القواد من هذه الدول على أثر انتهاء الحرب السبعينية وأيضا مع انتهاء الحرب الأهلية فى أمريكا . وكان من أوائل هؤلاء القواد سير صمويل بيكر الانجليزى. ليقود حملة الجيش المصرى إلى السودان للقيام بربط وادى النيل بخطة تنمية شاملة، حتى أفريقيا الوسطى، ولتأكيد وحدة الأراضى المصرية ـ والتى يقطنها أمم بدائية ـ لا قوانين ولا حكومة ترعى مصالحهم، بل يخطف بعضهم لحساب تجار النخاسة ولإدخال الوسائل المشروعة للتجارة، والتى تعود على شعوب وادى النيل بالخير والسعادة والرفاهية ـ وإنشاء خطوط ملاحية على امتداد وادى النيل بما فيها البحيرات الكبرى ـ وكذلك إنشاء نقط اتصال من تلغراف واتصال لتربط كل النيل بعضه بالبعض من أقصاه إلى أقصاه .. وفيما يلى نص العقد المبرم بين إسماعيل باشا خديو مصر والسير صمويل بيكر المبرم فى عام ١٨٦٩ م :

(١) يتعهد السير صمويل بيكر بالدخول فى خدمة سمو إسماعيل باشا ، فيخدم الحكومة المصرية لمدة سنتين على الأقل ابتداء من أول إبريل ١٨٦٩ ، وتكون مهمته قيادة حملة، غرضها ضم بلاد حوض النيل وأفريقيا الوسطى إلى الأقطار المصرية، وأول ما ترمى إليه الحملة، إعلان السيادة المصرية على بلاد النيل الأبيض، التى تقطنها اليوم أمم لا قوانين لها ولا حكومة ترعى الأمن فيها.

(٢) إلغاء النخاسة فى منطقة النيل الأبيض.

(٣) إدخال الوسائل المشروعة للتجارة، التى تعود بالفائدة على مصر (الامبراطورية المصرية) لوادى النيل.

(٤) إنشاء الملاحة فى البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء ، وهى منابع النيل الرئيسية.

(٥) إنشاء خط من النقط العسكرية ابتداء من غوندوكرو فى حوض النيل المتوسط، تقع الواحدة على مسيرة ثلاثة أيام من الأخرى، وذلك ضماناً للاتصال بين أقصى نقطة وقاعدة أعمال الحامية.

(٦) ضم الأراضى التى تمر بها هذه النقطة العسكرية بعد إنشائها ، إلى أراضى الامبراطورية المصرية، فتمتد إذن هذه الامبراطورية من منابع النيل إلى البحر الأبيض المتوسط.

سنة ١٨٦٩ (ملف ٧٢ / ١ عابدين)

وكان إسماعيل باشا يرسم لبيكر سياسته فى كيفية تنفيذ نصوص العقد .. وفيما يلى نص خطاب إسماعيل إلى بيكر فى فبراير عام ١٨٧٢ م فى هذا الصدد :

،قرب الميعاد الذى كنت قد حددته للعقاد (النخاس الشهير) للانسحاب من السودان والكف عن التجارة التى يمارسها فى تلك البلاد وإنكم ترون من الخير، أن تضموا رجاله إلى قواتكم ، بل أن تستبدوا بكل قواتكم رجالا من عصابات العقاد، باعتبارهم أجلد على المشاق وأطوع لاقليم نشر السلام فى البلاد ، وتهيئة السبيل إلى تقدمها ورائدكم التوفيق بين أهاليها والبيض ممن كان غرضهم الأول عند دخولها قتل الأهلين وسلب أموالهم واستبعادهم.

إننى لم أدفع المبالغ الجسيمة إلى العقاد، ولمن كانوا يمارسون هذه التجارة وبالأحرى أعمال اللصوصية ، لتظهر حكومتى فى مظهر اللصوص عند القبائل الوطنية، فإذا ما رأى الأهالى رجال العقاد تحت أمركم والطمأنينة وتقيموا السكينة والنظام بينهم، تكونون قد جئتم مثل النخاسين وانتم أشد منهم بأساً ومراساً، لتسلبوا الأذرة والمواشى وتسرقوا الأهالى أنفسهم.

فعليكم بالضد، أن تبذلوا الجهد فى أن تظهروا لرؤساء القبائل، الفرق بينكم وبين النخاسين، فذلك أمر جوهرى يجب ألا يغرب عن بالكم، وأستخلص من تقريركم ـ مع الأسف ـ إذا أحسنت فهمه أن ما ينقصكم من مؤونة الذرة، قد ألجأكم إلى اصطناع القوة للحصول على حاجتكم منها ، إذ رفض الأهالى بالطبع أن يزودوكم بها، لأنهم خلطوا بين الرجال الذين تقودهم وبين هؤلاء الذين ما فتئوا ينهبونهم، مهما شق هذا النقص على الرجال، يركبون من الصعاب فمن المؤسف أن يكون أول أثر لهذا النقص أن تصطدموا مع الأهالى وتظهروا مهمتكم بمظهر يختلف كل الاختلاف عن مظهرها الحق.



صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء فى عهد إسماعيل وحوله اركان حربه وهم القائمقام عبد القادر حلمى بك فالمهندس هيجنبوتام Higgnboiham ، ثم الملازم بيكر

لقد هبطتم بلادا جميلة خصبة، وتحيط بكم قبائل تأخذها الريبة وتناصبكم العداء ، بما كان من أعمال النخاسة السابقة، وهى الأعمال التى تهدف مهمتكم إلى القضاء عليها ، وأن مواصلاتكم مع الخرطوم طويلة شاقة، ففى هذه الحال أرى أنه لن يكون من الحيطة أن تتوغلوا فى البلاد، تاركين وراءكم قبائل لم تسكّنوا ثائرتهم ولم تستعيضوا اطمئنانهم ، قفوا فى غندوكرو، وتحصنوا وابدءوا مهمتكم، متخذين كافة الوسائل، لتطلعوا رؤساء القبائل عليها واحتكروا التجارة كما تقترحون، وأنا أوصيكم بذلك لا لأنى أميل إلى الاحتكار ولكن لأن الاحتكار له ما يبرره فى هذه الحالة، فهو ضرورى لإقصاء التجار الذين يستخدمون العبيد كوسيلة من وسائل المقايضة، على أنى أريدكم أن تحتكروا احتكاراً ينطوى على السماحة ، و سرعان ما تصلون إلى إقامة مصلحة شرعية محل مصلحة غير شرعية بين أولئك الأهالى ، وأود أن تطلعونى على مواد التبادل التى تهم الأهالى فى المقام الأول.

وأظن أن مهندساً واحداً لا يكفى ، فسأوفد آخر ليخدم تحت امرتكم فاستخدموهما فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى تسهيل المواصلات مع الخرطوم أنتم ذوو حول عند الباريين (الأهالى) ، فكونوا كذلك عادلين معهم، فيطمئنوا إليكم ، ولا يلبثوا أن يعلموا ما جئتم لتلقونهم. إن هذا العمل الخلقى والمادى سيستغرق زمنا طويلا لا أعلم مداه، ولكنكم إذا قطعتم فيه مرحلة معينة بلا شك قد فتحتم طريقا سهلاً إلى البحيرات ، وهى على بعد مائة ميل منكم أو أكثر، دون أن تنتقلوا من غندوكرو، وعلى الجملة لا تتقدموا بل علّموا واستعمروا واستجلبوا الأهالى إليكم فإذا تم لكم ذلك فتقدموا.

مهما تبسطت فى هذا الشأن فلن أكون مغاليا ، لأنكم ترون بأنفسكم الحالة المعنوية السائدة على القوة التى تقودونها، فقد تحملت المتاعب

والجوع والحرمان تحملاً يثير الإعجاب، نقد تبعتكم واليوم آخذون فى فقد سيطرتكم عليها، فإذا تمثل رجال نال منهم الضعف، فكرة التحمل لمتاعب جديدة، فقد يدفعهم ذلك إلى اليأس، وإذا تصوروا أنهم سيقيمون زمنا ما فى بلد خصب، ردت إليهم عزيمتهم من المحال الاستعاضة عن رجال هذه القوة برجال العقاد المغامرين وذلك للأسباب التى بينتها، أما استدعاؤهم قبل وصولهم إلى بلاد البارى وإرسال قوة أخرى فى عنوانها، فمدعاة إلى تثبيط عزائمهم.

فاستبقوا رجالكم، ودعوهم لينالوا قسطهم من الراحة، تجدوهم يخفون إلى معاونتكم إذا آن أوان التقدم لذلك يجب عليكم من جميع النواحى، أن توقفوا تقدمكم، ليمكنكم فيما بعد أن تدركوا الهدف على وجه أسهل وأوكد» .

فبراير سنة ١٨٧٢ (ملف ٧٢ / ١ عابدين) - ترجمه

وأيضا من القواد الانجليز الذين استفاد بخبرتهم إسماعيل باشا غوردون باشا والذى تم تعيينه حكمداراً للسودان، وكان منوطا بكل الأعمال الإدارية والتنمية الشاملة للسودان. إن كانت تنمية اجتماعية أو اقتصادية .. وفى نص الخطاب الذى أرسله إسماعيل إلى غوردون فى ١٦ فبراير عام ١٨٧٤ صورة صادقة لتوجهات إسماعيل له فى كل المجالات يقول الخطاب :

«أود وأنتم على أهبة الرحيل إلى الأقاليم التى وليتكم عليها، لفت نظركم بصفة خاصة إلى المسائل التى حدثتكم عنها من قبل، إن الأقاليم التى ستتولون إداراتها هى مناطق مجهولة، وكان يستغلها إلى العهد الأخير بعض مغامرين يتجرون بالعاج إلى جانب اتجارهم بالرقيق، متوسلين كما تعملون بإنشاء وكالات تجارية، يستخدمون فيها رجالا مسلحين ويمارسون أعمال المبادلة القهرية مع القبائل المجاورة - وفى عدة سنوات - أيام لم تكن هذه الأقاليم مندمجة فى حكمدارية السودان - رأت حكومتى لزاما عليها الاستيلاء على

وكالات هؤلاء التجار ، لقاء تعويض عنها للقضاء على هذه التجارة المحرمة الهادمة لحقوق الإنسانية.

وقد غادر بعض هؤلاء الرؤساء البلاد، وقد رخصت حكومتى للبعض الآخر- بناء على طلبهم - بالمضى فى ممارسة التجارة بشروط معينة وتحت إشراف السلطة العامة بالخرطوم، بعد أن تعهدوا بالإقلاع عن تجارة الرقيق، غير أن إشراف هذه السلطات كان بالضرورة ضعيفا فى هذه الاقطار النائية، ذات المواصلات الصعبة، ولا سيما أنه فرض على جماعات، لم تكن تعترف فى ذلك العهد بسلطان أى قانون، وقد حملتنى هذه الحال طبعا على فصل هذه الأقاليم عن الخرطوم من الناحية الإدارية مع تخصيصها بإدارة ذاتيه، وتقرير الاحتكار التجارى فيها، ولعمرى كان ذلك الإجراء الوسيلة المجدية الوحيدة للقضاء على عادات يرجع عهدها إلى مئات السنين بإلغاء تجارة عمادها السلاح.

لذلك كان أول واجب عليكم، العناية التامة بنهج هذا السبيل، فإنى أعود فأقول إن هذه الوسيلة هى الوحيدة فى بادئ الأمر للقضاء على تجارة بربرية، فمتى زالت عادة النهب وقطع الطريق، أمكن ممارسة التجارة الحرة بلا خطر، وعلاوة على تنفيذ الاحتكار التجارى، سيكون عليكم الاهتمام بأمر العصابات الباقية فى البلاد. إن قسما من رجالها قد اختفى ، ولكن هناك قسما آخر لا يزال باقيا، ويلزمكم فيما أرى أن تقبلوا خدمات رجاله والانتفاع بهم وفقا لطبائعهم فى الأعمال التى يصلحون لها إذا رضوا بنبذ مهنتهم والخضوع لكم. وعليكم تطبيق القوانين العسكرية فى كامل شدتها على من تسول له نفسه المضى فى تجارته، والمداومة على أعمال النهب بطريقة سافرة أو متسترة فهؤلاء يجب ألا يلقوا عندكم رحمة أو شفقة، فقد آن الأوان أن يعلم الجميع هناك أن فرق اللون لا يحول البشر إلى سلعة، وأن الحياة والحرية مقدستان .. وأرجو منكم أن تتجنبوا الوقوع فى الخطأ الذى سبق أن وقع فيه غيركم فجرَّ عواقب وخيمة، تحاولون اليوم علاجها، أعنى نقص المؤن، فقد اعتمدوا على



ريونجا ملك أونيورو يصافح بيكر باشا والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائمقام
عبد القادر بك حلمى سنة ١٨٧٢

القبائل المجاورة، غير حافلين بطول المسافات ولصعوبة المواصلات مع الخرطوم، فأهملوا الزراعة فاضطروا أخيرا إلى الاستيلاء على محصولات الذرة من قبائل كانوا مكلفين أن يبعثوا الثقة والطمأنينة فيها فيكونون لها مثلا يحتذى، لذلك زالت الثقة فلابد من إعادتها.

وستهيئ لكم هذه الأعمال الزراعية، فرصة لاستخدام الوطنيين الذين لا يزالون فى الوكالات ، ممن ضبطوا عند تجار الرقيق، أما الذين ينتمون إلى القبائل المجاورة ويريدون الرجوع إليها، ويمكنهم الوصول إلى بلادهم بدون خطر، فيجب الترخيص لهم بالعودة، ولا أفتأ أوصى بأنه إذا كان السفر يعرضهم للخطر لصعوبة المواصلات وتهديد القبائل المعادية ، استخدموا فى الأعمال الزراعية وفى إنشاء المواصلات التى أرجو أن يكون لهم المقام الأول من عنايتكم، إذ آمل أن تضعوا مشروعاً كاملاً للمواصلات لتيسير التعامل بين هذه الأقاليم والخرطوم. إن طريق النيل هو الطريق الطبيعى ولكنكم ستتبينون أن الملاحة متعذرة فى جزء طوله نحو سبعين ميلا بسبب التيارات السريعة الناشئة من الشلالات، فعليكم أن تبحثوا أمر هذه التيارات، وأن تبلغونى الحل الذى ترونه لأقرب منالا لإنشاء المواصلات.

والمسألة الأخيرة التى يبقى علينا تناولها، تختص بعلاقتنا مع رؤساء القبائل الضاربة على شواطئ البحيرات، ووصيتى الوحيدة فى هذا الشأن ، أن تتجنبوا كل عمل قد يخيفهم، وينفرهم ، فيجب أن تعملوا ما استطعتم على كسب ثقتهم، وطلبا لهذه الغاية، يلزمكم أن تحترموا بلادهم، وتستميلوا الرؤساء بالهدايا، وتبذلوا الجهد للمحافظة على الأمن بين القبائل بما تكتسبون ولا شك من بالغ النفوذ، عليكم أن تحاولوا منع الحروب التى يشهرها الرؤساء بعضهم على بعض لغنم الرقيق، ولكن أوصيك فى هذا الشأن بأشد الحذر، ففى البدء قد يكون من المحال منع الحروب بين القبائل منعاً باتا، على أنه يجب منع نزوع الظافرين إلى الفتك بأسراهم ما داموا لا يستطيعون التجارة بهم. هذا خطر أوجه نظركم إليه، ويقتضى على الأخص أن تصطنعوا كل ما أوتيتم من لباقة وذكاء، وهذا

هو السبب الذى يدعوكم بوجه خاص ، إلى السهر بنفسكم على الأمن فى هذه القبائل، وأوصيكم أن تتجنبوا الحلول محل الرؤساء فى القبائل، ومباشرة السلطة بدلا منهم بل يجب بالضرورة أن تباشروا السلطة بوساطتهم، مما يسهل عليكم استمالة الرؤساء إليكم مع إلقاء الهيبة فى نفوسهم.

ولا أظننى بحاجة إلى إضافة شئ إلى الآراء التى أبديتها وإنى لمعتمد كل الاعتماد على خلقكم وحنكتكم فى تنفيذها واستكمالها».

(١٦ فبراير سنة ١٨٧٤ ملف٧١ / ٣ عابدين) ـ ترجمه

وكان لاتساع الامبراطورية المصرية فى أفريقيا شأن فى مجال العلاقات مع الشعوب الافريقية المحيطة فكانت مصر حينذاك محط الآمال وأيضا ملاذا للمظلومين. وكانت السلطات الحبشية ـ حينذاك ـ قد قامت بهدم بعض كنائس الكاثوليك مما دفع هؤلاء للشكوى لخديو مصر إسماعيل، وفى هذا الشأن تدخل وأرسل إسماعيل كتابا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧١ إلى السلطان كاسا ملك الحبشة يقول :

«بعد أن أهدى إلى مقامكم السامى وقدركم النامى ما يليق من التعظيم والاحترام والتكريم فالذى نبديه لحضرتكم هو أنه فى هذه الأيام تبالغ إلينا أن الكاثوليكيين القاطنيين بالجهات التابعة لحكومتكم حاصل فى حقهم بعض معاملات نشأ عنها تضررهم وتأذيهم مثل إجلاء بعضهم عن أوطانهم وتخريب معابدهم وكنايسهم ولم يكن لها سبب سوى كونهم فى مذهب الكاثوليك على أنه كما لا يخفى على حضرتكم أن سائر الرعايا هم وديعة رب البرية وعدم المساواة فيما بينهم فمخالف لمرضاة القدرة الربانية كما أن نهج العدالة لا يفرق بين تفاوت المذهب وتخالف الأديان بما أن أمر التدين منوط بكل إنسان وكما يريد لنفسه أن يتدين بأى دين من الأديان

ونحن لا نرضى لكم هذا السلوك ولا ما يحط قدركم عند أقرانكم من الملوك وهذه حكومتنا الخديويه وما تشتمل عليه الخطة المصرية مع كثرة أهاليها وتخالف أديان سكان مدنها وبواديها فإن الجميع فى المعاملة عندنا سواء بقطع النظر عن اختلاف المعتقدات وتعدد الأديان والعبادات وكان المأمول أن تكون معاملة كافة الأهالى من حكومتكم بهذه الصورة لاستمالة قلوبهم ومنع أسباب التنافر واغتنام الذكر الجميل عند كل باد وحاضر وعدم الإشاعة بين الناس خصوصاً الأوربيين وتكلمهم فى عدم حسن سياسة حكومتكم وسوء معاملة رعيتكم على الخصوص بأنه موجود حملة دول فخيمة على مذهب الكاثوليك السالف ذكره وإذا استشعروا بالتقصيرات والإيذاء الواقع لأصحاب هذا المذهب بطرقكم فبالضرورة تأخذهم الغيرة عليهم ويترتب على ذلك حدوث بعض الأحوال التى لا نرضاها لكم وهذا وعدم تقاوم العهد على ما صار إلى تاودروس ملك الحبشة من مهاجمة بعض الدول الفخيمة لا تخلو فكرتكم فى ملاحظته لأن فى هذا مما يجب الاحتراز فيه إذ لا يخفى ما بيننا وبينكم من الجوار وقرب البلدان والديار وحبنا لكم وصدق ودنا معكم فقد حملنا هذا على إيذاء هذه النصيحة لحضرتكم لما هو محقق عندنا وأنكم لا ترضون وقوع هذه المعاملات الغير محمودة ولربما كان حصولها بطريقة غير معلومة لحضرتكم ولا مشهودة وأملنا ورجاؤنا العدول عنها حيث كان ورد وإعادة ما يكون . سلب أو نهب الأهالى المذكورين على التمام والكمال ومقابلتهم بالبشر والإحسان ومعاملتهم بما يجلب لكم الثناء على كل لسان لأنه إذا ما حصل ذلك واستمر حدوث الإيذاء للأهالى المذكورين والتجأوا إلينا فراراً من سوء المعاملة فبالضرورة نساعدهم ونعطى لهم أرضاً يسكنون فيها مواساة لهم

مع مخالفتهم لديانتنا وأنتم الأولون بمثل هذه المعادلة بسبب. اتحاد ديانتكم العيسوية والحاصل أن تقتضى الإنسانية وحسن السياسة أن تكون المعاملة متساوية بين الرعية ودون التفاوت إلى اختلاف المذاهب والديانات وهذا منتهى النصيحة منا هذا وأن أقصى آمالنا دوام المودة وازدياد المحبة بيننا ولأجل تأكيد المودة قد ارسلنا إليكم مع رافعه القمص حنا بعض هدايا بين مقدارها بالورقة الملفوفة فالمأمول قبولها منه عند وصوله مع قبول المومى إليه لدى جنابكم العالى واستماعكم منه ما أودعناه من الكلام الشفاهى والسلام ختام».

في ١٣ رمضان سنة ١٢٨٨ ـ ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧١ (سجل ١٩٤٢ أو امر عربية)

وبقدر ما كان يشجع إسماعيل العمران والتنمية فى القاهرة والاسكندرية فكان بنفس القدر وبنفس الفلسفة يشجع العمران فى كافة مدن الأمبراطورية المصرية وفى هذا الصدد هيا نطالع عزيزى القارئ أمر الخديو إلى محافظ زيلع، وهى أحدى مدن الامبراطورية على شاطئ المحيط الهندى أو بالتحديد على شاطئ خليج عدن يقول الأمر الكريم :

«بانها كم الرقيم ١٧ ذى الحجة ٩٢ غرة ١٩٤ أوضحتم عن وجود بعض أشخاص أورباويين راغبين مشترى أراضى من متعلقات الميرى ببندر زيلع لبناها محلات تجارية وتستأذنوا من لدنا عن ذلك وحيث أن المقصود هو عمارية البندر واستعاده وزيادة التوطن فيه فلا مانع من إجابة طلب من يرغب الأخذ من الأراضى المذكورة للبنا والعمارية سوا كان من الاورباويين أو الأهالى ويتحدد ويتسلم لكل من يرغب بقدر ما يطلبه بالنسبة لحالته ويكون الاعطا فى الاراضى الغير لازمة لجهة الميرى فى الحال والاستقبال ويكون أيضا فى المواقع التى توافق بالنسبة لانتظام البندر إنما الأشخاص الإجانب يصير الاستوثاق عليهم بالامتثال والانقياد للمعامله فى هذا الخصوص أسوة

الجارى به معاملة أهالى الحكومة بالتطبيق لقوانينها بدون فرق ولا تمييز ولا استثناء ولزم إصدار أمرنا لكم بذلك لتعلموه وتجروا مقتضاه كما هو مطلوبنا».

«(حاشيه) الأراضى التى يصير إعطاها على وجه ما أشير بمتن أمرنا هذا تكون مجانا بدون ثمن ويشترط على من يأخذوها بإجراء البناء فيها حسب التنظيم كما هو الغرض من إعطاها لأجل العمارية وأنه لا يعطى لهم بها حجج تمليك ما لم يتمموا بناها فى المواعيد التى تتخصص لذلك فلزم التمشية للأجرى كما ذكر».

محاربة الرق فى أفريقيا

«حان الوقت ليفهم الجميع هناك أن الفرق فى اللون لا يحول الإنسان إلى سلعة، وأن الحياة والحرية ... مقدستان ... إن هذه التجارة ... المخزية مستمرة ولو فى حدود ضيقة فلابد من موالاة ضربها ...»

إسماعيل

من خطابه لغوردون
فى ٢٠ أغسطس ١٨٧٤

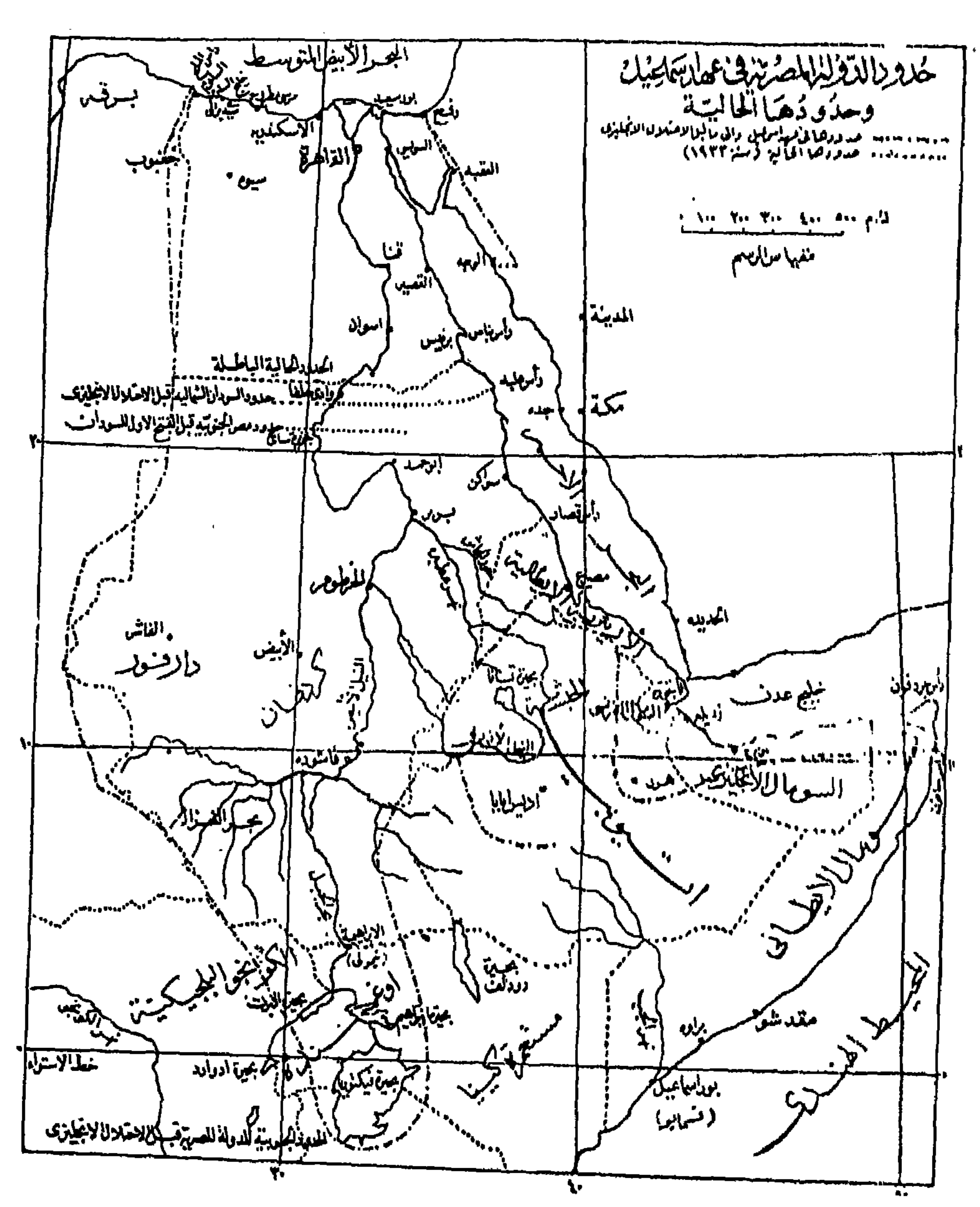


بدأ إسماعيل ولايته ، ونصب عينيه حقوق الإنسان ، ولكن من أين يبدأ ... حرية الرأى والمشاركة فى الحكم والديمقراطية والشورى، وهو ما ناقشناه فى الفصل الرابع، وأيضا علاقة الإنسان المصرى بالقانون وما استلزم ذلك من وضع نظام للمحاكم المختلطة وأيضا كان يؤرقه نظام السخرة والقضاء عليه، هذا كله فى مصر ... ولكن كانت أعباؤه أكثر من ذلك بكثير فكانت العبودية تؤرقه ... كانت تجارة العبيد والنخاسه تملأ العالم، وسيل العبيد لا ينقطع من أفريقيا إلى أوربا وأمريكا ... هكذا آل على نفسه أن يحرر الرقيق وبالفعل بدأ بنفسه ، فحرر مرضعته (أم إسماعيل) وأيضا حرر شقيقه فى الرضاعة إسماعيل •المفتش) وبدأ فى السعى لتحرير العبيد فى عائلته ومن المحيطين به، ومن أمثلة ذلك ، اشترى عبداً من عمه حليم باشا، وأعتقه فكان بذلك يضرب الأمثله الحية ... وكيف يتم تحرير العبيد فى مصر ... بالقدوة وكان هو نفسه هذه القدوة فى تحرير العبيد وإلغاء التجارة . وفى هذا الصدد يقول السير هنرى بلور فى رسالة منه إلى وزارة الخارجية البريطانية فى ١٥ ابريل سنة ١٨٦٥ أى بعد حوال عامين من ولايته يقول السير بلور فى رسالة : «إن الوالى مستعد لبذل ما فى وسعه، ولكنه لا يستطيع أن ينجز كل شئ على الفور، فقد أعتق أخيراً عبداً مملوكا لعمه حليم باشا، ولعل هذا الإجراء ، يعد بين جميع الأعمال التى حدثت من هذا القبيل فى مصر أشدها حسماً».

وهكذا بدأ إسماعيل فى خطواته الحثيثة الإيجابية فى سبيل منع تجارة الرق، وهكذا تم توقيع العقد بينه وبين سير صمويل بيكر والذى أوضحنا أركانه فى الفصل السابق وعلى رأسها منع تجارة الرق والنخاسة.

وكانت تجارة الرق هذه على أشدها فى هذا القرن بداية بنهاية القرن السابع عشر والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وكان الإنجليز هم عماد هذه التجارة فى العالم، وكانت أفريقيا هى منجم تجارة العبيد إلى ربا وإلى أمريكا (الدنيا الجديدة) بصفة خاصة ومن المؤسف أنه بقدر ما كان يسعى إسماعيل لإلغاء تجارة الرق، كانت الدول الأوروبية تعلن شعارات حقوق الإنسان وإلغاء الرق وفى نفس الوقت تحمى تجار الرقيق الأوربيين فى أفريقيا وبذلك كانت الدول الأوروبية تقف موقف المتفرج إلا من الشعارات وبذلك كانت كل مجهودات إسماعيل من أجل منع تجارة الرق والنخاسة يصيبها الفشل بل كانت كل محاولاته مصيرها الإجهاض قبل ولادتها وأيا كان من محاولات إسماعيل فيكفيه فخرا، أنه أول من قام بوضع بذرة التقدم والأزدهار فى السودان وأول من قام بإلغاء الرق وسعى لتحرير الإنسان الإفريقي وتعقب تجار النخاسة فى كل أرجاء السودان وحوض النيل حتى أواسط أفريقيا.

كانت تجارة الرقيق ممنوعة فى عصر محمد على، ولكن المشاكل التى كانت تثيرها أوروبا مع الباب العالى، وانشغال محمد على فى الحروب المستمرة فى أوربا والشام ونهاية بتحديد عدد أفراد جيش مصر فى معاهدة لتعرف فى عام ١٨٤٠ وكذلك تحجيم فى سلطانه وذلك طبقا لفرمانات السلطان فى هذا الشأن ... أيا كان الأمر فإن إلغاء محمد على الرق وتجارته لم تكن فى السنين الأخيرة من حكمه إلا اسماً فقط واستمرت تجارة الرق مستمرة فى عهد عباس حلمى الأول وسعيد باشا بعين الحكومة



الامبراطورية المصرية املاك مصر فى أفريقيا

وتحت بصرها، بل واحياناً كثيرة تأييد موظفيها، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى الرقيق وحاصلات الاستوائية وتربح من كل ذلك الارباح الطائلة، وكان هؤلاء التجار بما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق، ومع تولى إسماعيل عرش مصر، اعتزم أن ينضم إلى حركة الغاء الرق وتحرير الارقاء فى كل أنحاء المعمورة ويؤكد للعالم دور مصر فى تحقيق القيم الانسانية وحقوق الانسان وبالفعل ناضل من أجل إلغاء الرق، وأرسل فى عام ١٨٦٣ موسى باشا حمدى حكمدار السودان.

ونبدأ القصة من أولها، فقد منع محمد على الاتجار فى الرق، ولكن الظروف الدولية ووقوف الدول الأوربية كلها فى خندق واحد كان ضده ، بمعنى أن العالم كله حينذاك كان ضده ، والذى معه لم يكن ليستطيع أن يحقق كل أحلامه، وعل رأسها إلغاء الرق، فكان إلغاء الرق هذا اسميا فقط ، وبقيت تجارة الرقيق فى عهد عباس وسعيد. تحت سمع وبصر الحكومة، التى كانت فى حالة ضعف، فى الوقت الذى كان فيه تجار الرقيق يتمتعون بثراء فاحش، إذ كانوا بالاضافة إلى تجارة الرقيق كانوا يتاجرون فى الحاصلات الاستوائية السودانية، فكانت لهم مراكز مخصصة فى مختلف بقاع السودان لاصطياد الرقيق، ومع بداية حكم إسماعيل، بدأ فى تنفيذ ومحاربة تجار الرقيق. ففى عام ١٨٦٣ أرسل موسى باشا حكمدار السودان وقتئذ يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم. والقضاء على هذه التجارة البغيضة اللإنسانية.

وبدأ موسى باشا فى حرب هؤلاء التجار وضبط سبعين سفينة تقل العديد من الأرقاء فى مجرى النيل الأبيض فيما بين كاكا وفاشوده ، فأطلق سراحهم وأعاد من أعاد إلى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم وأفرج

عنهم بعد أن تعهدوا بعدم عودتهم إلى هذه التجارة مرة أخرى وكان لهذه الواقـعـة أثرها ، حـيث تم احـتـلال فـاشـوده عـام ١٨٦٥ وذلك بعـد ولاية إسماعيل بثلاث سنوات فقط.

كـانت هذه الواقـعـة هى بداية من طريق النيل فـى وجـه تجـارة الرقـيق وخـصـوصـاً فـى منطقـة غـابات وأدغـال وأحـراش بحـر الغـزال. وأصـدر إسمـاعـيل أوامره بتـحـرير كل عبـد أو جـارية يثـبت على سـيدها أنـه أساء معاملتـها واستمرت الجهود المضنية لحرب هذه التجارة فى عـهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ومن بعده إسماعيل أيوب باشا ، واستمر صمويل بيكر من بعد ذلك وعلى أثره غوردون فى تنفيذ سياسة إسماعيل فى القضاء على الرق، ومـحاربة الرقيق، ولكن فى الحقيقة كانت هذه السياسة يقف أمامـها عائقان رئسيان :-

أولها : أن جـهود الضبـاط الإنجليز (بيكر وغـوردون) لم تكن أمينه، إذ كانت جهودهما بالدرجة الأولى هى لخدمة بريطانيا.

ثانيها : أن تجار الرقيق فى أواسط أفريقيا كانت لهم قوة بطش وعزه من اعيان البلاد وتتكون منهم طبقه كبيره من الأهالى.

وهكذا كـانت هذه التـجـارة هى مصـدر ثروتهم، عـلاوة على أن الأيدى العاملة فـى الرعى والزراعة وأعمال الخـدمـة تعتمد بالدرجـة الأولى على الرقـيق، وكـانت هكذا الحياة فى أفريقيا تسير طبيعية، فكان أعيان البلاد والطبقة المتوسطة تعترف بهذا النظام وكان الأرقاء بالنسبة لهم كانوا كأتباع وموال، وكان لتحرير الرقيق دفعة واحدة مفاجأة للحياة الاجتماعية وكانت لهذه السياسة آثار جانبية ومجازفة لا تدرك أبعادها ومما زاد الطين بلة، أن كانت قيادة مقاومة وحرب هذه التجارة هم كبار الضباط الانجليز مثل بيكر

وغوردون كما ذكرناه والذى أوغر صدر الأهالى، وزاد من كرههم للحكومة المصرية، وهؤلاء الانجليز من ناحية أخرى كانوا يستفزون مشاعر الأهالى وأعيان البلاد وتجمعت كل هذه الأسباب وكانت كالنار تحت الرماد ونفخ فيها فى الوقت المناسب لتزيد من الوقود الذى أشعل الثورة المهدية فيما بعد. فى عهد ولده الخديو توفيق وهكذا كان الأمر يحتاج إلى التأنى والتريث والحكمه ... وبعد النظر ولكن إسماعيل لم يكن يدرك أن هؤلاء الانجليز كان همهم هو أن ينالوا من مصر ومن أطراف مصر الجنوبية وهذا ما سيكشف عنه التاريخ فى المستقبل.

فكان كل هم الانجليز هو الوقيعة بين مصر وبين الأهالى فى الجنوب والسعى لخلق مصر فى الشمال والسودان فى الجنوب وخلق كيانات عديده. هكذا كسبت مصر عداء كل الأعيان فى السودان وفى هذا الصدد يقول المسيو داريل «Daryl» فى مقدمة رسائل غوردون إلى شقيقته ما يلى : «عهد الخديو إسماعيل إلى الكولونيل غردون مطاردة تجار الرقيق فى السودان ، ولكن المجهودات العنيفة التى بذلها ذلك الضابط الانجليزى لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة الطبقة التى كانت مصر تعتمد عليها فى السودان».

وكان وقتذاك الزبير من أكبر أعيان السودان، وأكبر تاجر رقيق فى وسط أفريقيا، وكانت منطقة نفوذه الهائلة تتمركز فى إقليم بحر الغزال، وقد شبت حرب بينه وبين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك، فامتلك الزبير بلاده، واتخذ عاصمته مقراً له، وسماها ريم الزبير، فصار فيها ملكا، ودانت له أقاصى بحر الغزال، وتقاطر الناس إليه، وقدموا الولاء له وانتظموا فى خدمته، وهكذا استطاع الزبير تكوين جيش عرمرم قوى لتأكيد سلطاته، واقتناص العبيد من هذه المنطقة والمناطق المتاحة، وفتح طريق

التجارة من بحر الغزال إلى كردفان مرة أخرى، بعد أن كانت التجارة قد اوقفت فى عام ١٨٦٥ على أثر احتلال فاشوره.

وفى عام ١٨٦٥ جاء إلى منطقة الزبير رجل يدعى «البلالى» قادما من الخرطوم رافعا علم مصر ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الإقليم، ومعه فرمان بتسميته مديرا لبحر الغزال، ولكن الزبير استطاع أن يقتل هذا المدير القادم من مصر، فخشى الزبير عاقبة فعلته وعداء الحكومة المصرية، فتراجع وأظهر ولاءه للخديو واعترف بسلطة الحكومة المصرية، واتسع سلطان الزبير ففتح بلاد «شكا» الواقعة بين بحر الغزال ودارفور، ووضعها بين يدى الحكومة المصرية ـ التى دان بها ـ لتعين لها الحكام، وبهذا أظهر ولائه لمصر وللخديو، وبقى على ولائه طول حياته، وأنعم عليه الخديو برتبة بك، وعهد إليه حكم البلاد التى فتحها وهى بحر الغزال وشكا وصار مديرا لبحر الغزال، وجعل مدينة شكا عاصمة للمديرية. وبعد ذلك أكد حكم مصر لدارفور وأصبحت من أملاك مصر. بعد أن كانت مملكة مستقلة يحكمها ملك يسمى السلطان إبراهيم وكان يناوئ الزبير، وكان ذلك فى غضون عام ١٨٧٤، وفى نفس العام وفى ٢٠ أكتوبر تم تجهيز جيش فى كردفان، وعهد إلى الزبير بك حشد جيشه فى بحر الغزال، وبذلك تحاصر دارفور من الشرق ومن الجنوب، فسار الزبير من الجنوب وتلاقى مع قوات سلطان دارفور، وكانت تتألف من عشرين ألف مقاتل، فهزمها الزبير هزيمة منكرة وكانت المعركة الفاصلة فى منواشى فى ٢٥ أكتوبر من نفس العام، وفشل السلطان إبراهيم وهزم هزيمة منكرة وتشتت جيشه ودانت دارفور للحكم المصرى ودخل الزبير الفاشر عاصمة دارفور.

ثم جاء إسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة القادمة من كردفان فى الشرق فى ١١ نوفمبر لنفس العام، وهكذا تم ضم سلطنة دارفور إلى الديار

المصرية، وأرسل حكمدار السودان إلى الخديو يبشره بأخبار الفتح، وأنعم الخديو على إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان برتبة فريق، وعلى الزبير برتبة لواء فصار يعرف بالزبير باشا، وكذلك بترقية بعض الضباط وضباط الصف والجنود، كل ذلك تم فى احتفال عسكرى مهيب ضم الجيش المصرى، وتم تلاوة القرارات وأطلقت المدافع ابتهاجا وإجلالا.

وبضم دارفور إلى الديارالمصرية ، اتسعت خريطة مصر وزاد عدد سكانها قرابة ثلاثة ملايين نسمة.

وتم عمل توسعات فى مدينة الفاشر من مبنى للحكومة ومنزل للحاكم وثكنات الجنود، هذا خلال حصن منيع ، مما وطد دعائم الأمن والطمأنينة، وأقام سوقا ومركزاً تجارياً كبيراً.

واستتبع ذلك أن فرض إسماعيل باشا أيوب ضرائب باهظة على الأهالى مما أثقل كاهل الأهالى، والذى معه شكا الزبير باشا إسماعيل باشا أيوب إلى الخديو إسماعيل.

فطلب الخديو من الزبير باشا المثول بين يديه إلى القاهرة لمناقشة الأمر، ومع وصوله أكرم الخديو وفادته، وطلب منه البقاء فى القاهرة، فأدرك الزبير باشا أنه رهينة .. ومع ذلك أذعن للبقاء والإقامة فى مصر مشمولا بكرم الخديو على أن يبقى على ولائه لمصر.

وكانت تجارة الرقيق ما زالت تمارس بتشجيع من تجار الرقيق الانجليز، ويبدو أن إسماعيل لم يكن يدرك حجم المؤامرة فبريطانيا تمارس التجارة فى الخفاء وتعلن عن حقوق الإنسان وإلغاء الرق ... وتحدث إسماعيل على مواصلة حربه ضد تجار الرقيق، وتطبيقا لهذه السياسة فقد تم إبرام معاهدة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ للتعاون على منع الاتجار

بالرقيق، إحتوت نصوصا تمكن الانجليز من التدخل فى شئون مصر، وأن تنال من مصالحها، وتجور على حقوقها، إذ أباحت لهم الرقابة على السفن الحاملة للعلم المصرى!! وتفتيشها وضبطها بحجة ممارستها لتجارة الرقيق فكانت معاهدة لا خير فيها، ولا فائدة لمصر. وهذا بفعل الضغوط المستمرة من الباب العالى والذى معها كان إسماعيل يلجأ للأعداء ويرتمى فى أحضانهم .. وأيا كان الأمر فإن إسماعيل يكفيه شرفا أنه يسعى فعلا لإلغاء الرق ومحاربة تجار النخاسة.



النهاية

إلى حضرة صاحب السمو حلمى الثانى :

«يؤلمنى أبلغ الألم أن أنبئ سموكم بأن جدكم أسلم الروح فى الساعة الخامسة والخمس دقائق من هذا الصباح أطال الله بقاء الخديو»

الأمير إبراهيم حلمى

استانبول فى ٢ مارس ١٨٩٥



ويبدو أن بداية حكم إسماعيل كانت تحمل بذور نهايته المأساوية وتنازله عن العرش فيما بعد فى أحشائها ..

ولنبدأ القصة من أولها .. منذ استقرار حكم محمد على بعد معاهدة لندن، وصدور فرمان ولاية العرش من عباءة هذه المعاهدة الحقودة الصادر من السلطان العثمانى فى ١٢ فبراير عام ١٨٤١ ، ينص على أن يتم اختيار والى مصر بمعرفة السلطان من أولاد محمد على وأولاد أولادهم من الذكور من يشاء فى إطار سلالة محمد على لتخلف الوالى السابق له، فإذا لم يوجد بين الأبناء والأحفاد خلف من الذكور يحق للسلطان أن يختار من يشاء للولاية (مع استبعاد أبناء الإناث تماماً إلا إذا أراد الباب العالي اختيار أحدهم علي أن يتبع هذا الأختيار حق التوريث) .

وكان هذا النظام طبقا لفرمان ١٨٤١ يهيئ المناخ للمنافسة فيما يفتح الباب على مصراعيه للتنافس ـ تبعا لذلك إلى البذل للباب العالى وبلاط الباب العالى ـ وأيضا كان لهذا النظام ـ واستمرار العمل بمقتضاه ـ أسباب شخصية . فمن شأن هذا النظام وبقائه أن تشتد ضراوة المنافسة داخل أسرة محمد على ويزداد الحقد ـ وهذا كان على هوى ومشيئة الباب العالى وبلاط الباب العالى فقد آن الأوان لتصفية حساباته القديمة مع (مصر

محمد على) وتهديدها السابق لأبواب القسطنطينية فكان السلطان يقرب إليه العديد من أفراد أسرة محمد على مثل الأمير مصطفى فاضل بك الأخ الأصغر وغير الشقيق لإسماعيل، واختياره له ليكون وزيرا للبلاط، وأيضا الأمير حليم باشا إسماعيل وأصغر أولاد محمد على والذى كانت تربطه بالباب العالى علاقات ود ولذلك اشتدت كراهية إسماعيل لكل من شقيقه مصطفى فاضل بك وعمه الأمير حليم باشا والذى معه إنقسم البيت العلوى على نفسه كانت هكذا سياسة الباب العالى خلق مناخ من المؤامرات والدسائس بين الأمراء ـ وضربهم بعضهم ببعض، واختلاق الوقيعة بينهم ، وهذا فى إجماله أشاع جواً ملبداً بالغيوم وهدد الاستقرار فى البيت العلوى، بين أفراد الأسرة بعضهم وبعض، كما أوضحنا سابقا، وإنعكس ذلك على مصر كلها، مما دفع إسماعيل إلى مطالبة السلطان العثمانى بتغيير نظام الوراثة من الأرشد الأكبر .. فالأرشد الأكبر فى ذرية محمد على ،.. إلى الولد البكر فالولد البكر من ذريته شخصيا.

وهذا المطلب من شأنه أن يمهد لعلاقات ودية بين (مصر إسماعيل) وبين السلطان ، والذى معه بدأ فى بذل مزيد من الهدايا للسلطان وحاشيته، وفى هذا الصدد كانت حاشية السلطان تبتز مصر بشتى الوسائل للحصول على مزيد ومزيد من الأكياس، فكان الفساد على أشده فى قصور السلطان ان كان قصر يلدز أو قصر طوب كابى على ضفاف البوسفور والقرن الذهبى، وفى ذلك يقول إلياس اليعقوبى مؤرخ الأسرة العلوية : «لو أراد التاريخ حصر قيمة ومقدار كل ما صرف فى تلك الأيام فى الآستانة ، والأبواب التى صرف فيها لأعياه الأمر وسقط دونه كليلا، لأن المبالغ المصروفة تجاوزت عدة ملايين من الجنيهات، ومن البديهى أن إسماعيل لم يكن وحده الذى يتولى الصرف والإنفاق، فقد شاركته والدته ـ الوالدة

باشا ـ فى تقديم الأموال والهدايا التى بلغت قيمتها أضعاف ما أنفقه إسماعيل وذلك لكى تساعده على تحقيق طموحه».

وهذا من شأنه أن أرهق ميزانية مصر وساعد على النيل منها وفى النهاية صدر فرمان ولاية فى ١٧ مايو ١٨٦٦ الذى ينص على انتقال كرسى الولاية إلى بكر أولاد الوالى ومنه إلى بكر أولاده أيضا وأقيمت الاحتفالات فى مصر لكى يهنئ رجال الدولة وأعيان الأمة .. الأمير «محمد توفيق» بمناسبة ولايته للعهد ولم يكن قد تجاوز الأربعة عشر عاماً ـ كان هذا الفرمان فى الحقيقة يهيئ المناخ لاستقرار مصر إذ أن استقرار الخديو ينعكس على مصر كلها شعبا وحكومة .. فمصر حينذاك كانت تحكم بنظام شمولى، فكان الوالى هو مصر ومصر هى الوالى .. إذ أن الشعب كان لا يملك مقدراته بعد ـ كان ما زال يحبو، ومجلس شورى النواب كان فى طريقه للتكوين، والفكر الديمقراطى كان ما زال جنينا فى أحشاء الشعب والمثقفون الذين كانوا طليعة التنوير فى مصر الذين أرسلهم محمد على لم يكن عددهم يسمح بحماية مكاسب الشعب حينذاك (مثل على مبارك باشا ورفاعة رافع الطهطاوى).

ومع ذكاء إسماعيل وكونه سياسياً بارعاً ورجل دولة داهية، إلا أن المناخ الفاسد الذى كان يحيط به كان أكبر، والظروف السياسة كانت شديدة الضراوة، فكان الباب العالى يسعى أيضا للوقيعة بين قيادات الشعب التنويرية وبين القيادات الدينية، وكان إسماعيل فى هذا المناخ الشديد الضراوة بعمل حساباً لكل هذه العوامل العديدة التى تزكم الأنوف من الفساد، فرائحة الخيانة فى كل مكان فى مصر، بل فى كل ركن من أركان العالم وكما أوضحنا فى الصفحات السابقة لم يكن له صداقات فى أوروبا إلا نابليون الثالث، الذى كان إلى حد ما محل ثقته ومع ذلك كان من الواجب

أن يعمل له حسابا خشية أن يأخذ صف باقى الدول الأوروبية فكانت مظاهر الود الدبلوماسية تحكم علاقتهما أيا كان الأمر .. فقد أرسل إسماعيل نوبار باشا إلى باريس لاستطلاع رأى نابليون الثالث فى وضع نظام الوصاية على العرش استكمالا لفرمان ١٧ مايو ١٨٦٦ والخاص بتغيير نظام وراثة العرش واستوثق نوبار أنه لا توجد معارضة لهذا الموضوع فى فرنسا. حيث اعتبر المسئولون هناك فى باريس أن هذه المسألة لا تخص سوى الوالى والسلطان ، وعندما سأل أحد الكبار الفرنسيين نوبار عما إذا كان هذا التعديل فى مصلحة مصر .. أكد له نوبار بأن هذا التعديل من مستلزمات الاستقرار فى مصر وأيضا أكد على ضرورة تحديد وتوضيح ما إذا كان وريث العرش قاصرا يعرض مصر للخطر بتدخل الباب العالى ويعين وصيا يختاره كما يشاء ... هذا استلزم تدخل فرنسا لوضع نظام للوصاية صدر فى فرمان ثان تال لفرمان وراثة العرش «ينص على تشكيل مجلس للوصاية من الوزراء برئاسة وزير الداخلية - وبصدور هذا الفرمان الأخير استقرت الأمور فى قصر عابدين وفى مصر كلها ... الى أن كان افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وما صاحبها من احتفالات وكرنفالات والابهة التى غمرت المدعوين ولبست شوارع القاهرة ثوب العرس وحلل الزينة وأصبحت القاهرة فعلا منارة الثقافة والتنوير فى الشرق مثل ما كانت باريس منارة الثقافة فى أوروبا) وهكذا كانت احلام إسماعيل وبالفعل استطاع التصدى للباب العالى وانجلترا وألمانيا وروسيا والرحبية فى الآستانة وفى مصر أيضا.

ومع سبعينات القرن الماضى ومع نهاية الحروب السبعينية بين بروسيا (ألمانيا)وفرنسا، وانتهائها بهزيمة فرنسا، .. أصرت ألمانيا على توقيع معاهدة التسليم والهزيمة فى قصر فرساى على ضفاف نهر السين فى

باريس، مع هذه الهزيمة وخروج نابليون الثالث فى القصر الإمبراطورى ـ فقد إسماعيل أهم حليف له فى أوروبا ـ وأقرب صديق له بل الصديق الوحيد وبذلك أصبح إسماعيل لقمة سائغة فى فم المجتمع الدولى فقد كان على الجانب الآخر من البحر المتوسط من هم يخططون لهدم كيان «مصر إسماعيل» هذه الولاية الصاعدة فى عالم الثقافة والتقدم والحضارة ... اجتمعت أوروبا كلها على قلب رجل واحد من أجل القضاء على إسماعيل . والقضاء على إسماعيل لا يقصد به إلا القضاء على مصر فإسماعيل هو الذى يأخذ بيد مصر لتكون قطعة من أوروبا وكانت مجموعة الحاقدين فى أوربا انجلترا وفرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا، وفى هذا يستخدمون السلطان وحاشية السلطان من أجل ما يخططون له ـ وبذلك يتكرر التاريخ بعد ثلاثين عاماً «وكما قال شاعر النيل فى هذا الصدد مصر تتحدث عن نفسها ـ أنا إن قدر الإله مماتى .. لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى» بعد ثلاثين عاماً مضت عندما اجتمعت أوربا من أجل القضاء على مصر فى شكل الأسطول المصرى فى موقعة نفارين الشهيرة، عندما تصدت أساطيل أوروبا كلها فى مواجهة الأسطول المصرى والقضاء عليه، وبعد ذلك عندما هددت الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا ـ أبواب القسطنطينية واستمرت المؤامرات من كافة الأطراف فى كيفية التخلص من إسماعيل فهو الامتداد لوالده إبراهيم وجده محمد على ـ هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى يسعى إسماعيل للإصلاح وجهوده لا تكل من أجل مشروعات التنمية ومع فقده صديقه الوحيد / نابليون الثالث بعد هزيمة فرنسا ... أصبح إسماعيل وحيدا على الساحة ولقمة سائغة كما أوضحنا ... وفجأة جاءت الضربة القاضية من جانب لم يكن ينتظره، جاءت من وراء أحكام المحاكم المختلطة التى أنشأها إسماعيل فقد دخلت ألمانيا الحلبة لا لكى تفعل ما فعلته انجلترا وفرنسا فتطلب إرسال (مندوبين) مراقبين ماليين يعينون

كوزراء ... بل طلبت تنفيذ أحكام المحاكم المختلطة، واظهرت ألمانيا عزمها على العمل والتشدد إذا لم تنفذ الأحكام الصادرة لصالح الدائنين الألمان، وكان ذلك على أثر البرقية الشهيرة لبسمارك فى مايو ١٨٧٩ التى تطالب بتنفيذ الأحكام ، بينما كانت الخزينة خاوية وكان الشعور حينذاك ينم بأن شيئا ما سيحدث، ودهشت فرنسا وانجلترا من خطة ألمانيا ، التى لم تكن تظهر قبل ذلك اهتماماً كبيرا بالأمور المصرية وقررت حكومات الدول الثلاث (انجلترا ـ فرنسا ـ ألمانيا) خلع إسماعيل وتولية ابنه توفيق وبعد مفاوضات بين هذه الدول والباب العالى والتى جاءت على هوى الباب العالى لكى ينكل بإسماعيل الذى تجاسر يوما ورفع رأسه فى مواجهته، واتفقت الارادات كلها من أجل التخلص من إسماعيل وخلعه من ولاية مصر ... وكان ذلك فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ ... وأنذر الصدر الأعظم إسماعيل.

فبادر إسماعيل ووقع وثيقة تنازله عن العرش لابنه توفيق بطريقة حضارية فى أول يوليو ١٨٧٩ فهو لا يستطيع الوقوف فى وجه بريطانيا وفرنسا وألمانيا، ولا يستطيع التصدى لإرادة السلطان ومن ناحية أخرى فإن الوالى الجديد هو ابنه توفيق ... وهو ما سعى إليه وبذل من أجله الكثير فى أن يرى ابنه واليا على مصر أيا كان الأمر فلا مفر من القدر ...

فبدأ يرتب نفسه لمغادرة قصر عابدين ويترك مصر كلها وكانت وجهته أوربا وترك المكان وطاف بعين خياله فى أرجاء الشانزليزيه وكلية سان سير الحربية ... وغرقت عيناه بدموع الشجن والإحساس بالقهر والظلم، وأفاق إسماعيل مع تباشير صباح يوم الأثنين ٣٠ يونيو على ضوضاء وجلبة الوفود القادمة من أعيان وشيوخ الأقاليم والمديريات المختلفة جاءوا لتحية ووداع الخديو السابق، مجموعات من علماء الأزهر والقضاة ورجال الدين وزرافات مختلفة من المحافظات والمديريات وأعراب من سيناء

والشرقية والصحراء الشرقية وصحراء بلبيس بملابسهم الفضفاضة والغطفة والعقال على رؤسهم وأعيان الصعيد بعمائمهم الكبيرة وعباءاتهم الواسعة.

ومجموعات أعيان الفيوم والبحيرة والصحراء الغربية بطرابيشهم الحمراء ذات الزر الأزرق أو الأسود الطويل وبرانسهم الطويلة المطرزة، وها هم أعيان المنوفية وأعضاء من مجلس شورى النواب بطواقيهم الصوفية الطويلة. وجاءت وفود من الأزهر وطلبة المدارس العالية : مدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق إلى غير ذلك من الأعداد الغفيرة من الجنود والضباط والصف ضباط الذين أحيلوا للاستيداع أو رفدوا من الخدمة وكذلك طلبة الكلية الحربية يحيطون بقصر عابدين كأنهم حصار من الحب والولاء لواليهم كل هؤلاء لكى يعبروا عن وفائهم .. بعضهم جاءوا يحملون زعماءهم يهتفون للوالى يا عزيز يا عزيز .. وآخرون يحملون لافتات تعبير عن أساهم .. ودخل إلى القصر كبار الشيوخ والزعماء والضباط الكبار ليودعوا الخديو فكان يوماً مشهوداً ..

وفى الساعة العاشرة والنصف أقبل الخديو توفيق على أبيه يودعه .. وفى الساعة الحادية عشر تماماً خرج الخديو السابق متوكئا على نجله الخديو الجديد ودلائل الحزن بادية عليهما، وركبا العربة مغادرين قصر عابدين ، وركب بعدهما الأمراء وكبار رجال الدولة، وسار الموكب متجها إلى باب الحديد حيث محطة سكة حديد العاصمة وكان حينئذ حرس الشرف مصطفاً على الجانبين يحيى الخديو السابق ولما بلغ الركب المحطة ترجل إسماعيل باشا ووقف توفيق يودعه وعيناه مغرورقتان بالدموع، وكان إسماعيل شديد التأثير من هذا المنظر، كل هذا وتحيط به الجماهير الغفيرة التى كانت تحيط بالقصر وأحاطوا بالمحطة ودخل من دخل إلى بهو المحطة ، فوقف الخديو يخطب الحاضرين خطاباً ثم التفت إلى نجله وودعه قائلاً :

«لقد قضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز أبنائي خديو مصر، فأوصيك بأخوتك وسائر الأبناء براً، واعلم أني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب، التي توجب لك الارتباك، على أني واثق بحزمك وعزمك، فاتبع رأى ذوى شوراك، وكن أسعد حالاً من أبيك» ..

وبكى كل من كان في بهو المحطة من مودعين . وكانت القطارات تطلق صفاراتها وكأنها تودع عاشق مصر بصفارات مخنوقة كأنها أنشودة حزينة .. وتحرك القطار الملكى وتسابقت جماهير غفيرة بمحاذاة القضبان يبكون من فرط المشهد الدرامى الحزين، ويلوحون لواليهم عاشق مصر ... من أشعل مصباح التنوير ... واستمرت اللقاءات بين الوالى وشعبه على امتداد الطريق فيما بين القاهرة والاسكندرية مروراً بشبرا وقليوب وقها وطوخ وبنها عبوراً للنيل إلى طنطا وكفر الزيات وعبوراً لفرع النيل مرة ثانية عند فرع رشيد مروراً بمحطات ايتاى البارود ودمنهور وكفر الدوار ... كل هذا وأفواج المودعين تحيط بالقطار ومع كل محطة كان سائق القطار يبطئ من سرعته حتى يلوح الخديو السابق لجماهير الفلاحين والاعيان والتجار القادمين من داخل القرى ومدن الدلتا يلوحون ويصيحون ويتهافتون ويعدون بجوار القطار بمحاذاة خطى السكك الحديدية فى دراما خطرة ...

وفى هذا الصدد فى أول يوليو ١٨٧٩ يقول فارمان قنصل الولايات المتحدة الأمريكية إلى وزير خارجيته في واشنطن :

«لم تثر هنا أى ثائرة لتنازل الخديو عن العرش مع الإجماع على رعايته بدلائل العطف والاحترام، فمنذ تنازله لم يخل قصره من وفود الزوار الذين

يأتون زرافات ليعربوا عن ولائهم، وقد احتشدت جموع أخرى فى المحطة وعلى طول المسافة حتى الاسكندرية».

وفى نفس التاريخ وفى كتاب آخر لفارمان القنصل الأمريكى إلى وزارة الخارجية مؤكدا فضائل حكم إسماعيل :

«تتضارب الآراء فيما يتعلق بفضائل حكم إسماعيل بل كذلك فى شأن العمل التحكمى الذى عمدت إليه الدول، بقصد الدول الأوربية ، إذ خلعته أو ألجأته إلى التنازل عن العرش ، دون أن يطلب إليه شعبه ذلك وعلى خلاف رغبة كبار الشخصيات الدينية والعسكرية والمدنية والعلمية فى الدولة».

وفى كتاب آخر لفارمان فى ٨ يوليو ١٨٧٩ على أثر تنازل إسماعيل عن العرش إلى وكيل وزارة الخارجية الأمريكية يدافع عن فترة حكم إسماعيل ، وينتقد سياسة أوربا ضد مصر فى شخص إسماعيل:

«لا أبغى على الإطلاق أن أتولى بوجه من الوجوه الدفاع عن إدارة الخديو السابق، فمن العسير جداً، مع الصورة التى تتمثل عليها الحكومة الصالحة أن تبرز أعمال أمير شرقى بأجمعها مهما كان، فإذا أرادت فرنسا وانجلترا أن تخلعا أمير أفغانستان أو شاه فارس عن عرشه، فما أسهل هاتين الدولتين أن تتهمها بسوء الحكم وأن تقنعا العالم المسيحى بصحة هذه الحجة، والذى أود أن أبديه أن حكومة الخديو كانت بلا شك على ما بلغنى من أوثق المصادر أفضل حكومة فى الشرق فهى الحكومة الوحيدة التى حاولت الرقى واليوم وقد بدأ الرأى العام أن يستعرض حكم سموه، فإن هذا الرقى يبدو مهيب المظهر ، صحيح أن الدول الأوروبية الكبرى لم تكن لتجمع على المطالبة بتنازل الخديو عن العرش، لو لم يتهيأ لها من الأسباب، ما يبرر ذلك ولكن من العسير تبرير كل ما تعمد إليه الدول الكبرى من الأعمال فى حق جاراتها الضعيفة ، حتى مع التجاوز عن طلب الوقوف عن أسباب صريحة جد الصراحة، فكان لكل حكومة أسباب خاصة للعمل كما عملت، وقد عملت وفقا لما تتصور أن

مصلحتها السياسية لا جدال فى أن الخديو لم يكن ليمهد السبيل لتدخل الدول فى أعمال حكومته لو لم يكن قد التزم من البدء التزامات مالية ليس فى وسعه القيام بها ولكن عجز دولته عن وفاء دينها، لم يعتبر قط سببا يسمح للدول الأجنبية بخلع مليكها أو تغيير حكومته، هذا إلى أن الحكومات الأوربية كانت تعلم تمام العلم كيف نشأت أغلب هذه الديون، ولا أظن أن الحكومات الأجنبية (الاوروبية) قد خدعتها صحفها ...

لم يعد الخديو عندما استغنى عن خدمات وزرائه الأوربيين أن قام بواجبه كرئيس دولة ولم يتجاوز حقه، حتى إذا أقمنا وزنا لاتفاقاته مع الدول الأجنبية، فمن ذلك الحين حكمت البلاد حكما حسنا، ولابد أن يمضى زمن طويل قبل أن تطمح حكومة شرقية أخرى إلى الفوز بإدارة مثل تلك الإدارة حتى لو كانت بمساعدة الأجانب.

وأجمع ممثلو المصالح الحكومية فى مصر الرأى على عمل الدول الأوربية فليس هذا العمل فى نظرهم حكما تحكيما لا مبرر له فحسب بل هو كذلك عمل مجحف بحق الخديو وحق شعبه.

فهم يقولون أن الحجة التى اتخذت وهى سوء الحكم لا تقوم على أساس إذا عقدت مقارنة بين الإدارة فى مصر والإدارة فى البلاد الشرقية الأخرى مثل الجزائر والهند».

وهكذا شهد قنصل الولايات المتحدة فى حق إسماعيل شهادة حق والتى تؤكدها بأن الظروف هى قدر الزعماء والقواد وهكذا كان قدر إسماعيل من الغيرة التى تحيط به والحقد الذى كان يحكم العلاقات مع مصر والنهضة التى حققتها على يدى اسماعيل خلال ستة عشر عاماً فقط أصبح منافساً لكل الدول الاوروبية بل يتفوق على كثير منها وأيضا كان قدر إسماعسل أن يفقد صديقه الوحيد فى أوروبا نابليون الثالث . وأيضا جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن، وجاءت الاقدار على عكس ما توقع إسماعيل، إذ انتهت

الحرب الأهلية الأمريكية واستقرت الأمور للشماليين وأصبح القطن الأمريكى متاحاً أن يدخل السوق العالمى للقطن وأصبح منافساً للقطن المصرى ، ليس منافساً فقط بل قاتلا، سنوات مضت ، وهى كمية المخزون لسنوات الحرب الماضية فهكذا كان القطن الأمريكى لا ينافس فى السوق العالمى وأصبح القطن المصرى متاحاً بأقل سعر، وبذلك خسرت مصر احتكارها للقطن لسنوات مضت ...

وفقدت مصر كل شئ، وفقد إسماعيل الأمل، وطارت الورقة الأخيرة، وسقطت فى المحيط الأطلنطى ، حيث كانت الأساطيل التجارية الأوروبية والأمريكية تنقل القطن الأمريكى إلى أوروبا وعلى الخصوص إلى بوركشير ومانشستر حيث مصانع غزل القطن ونسجه فى سيل مستمر وبقدر ما كانت بريطانيا ترغب من النيل من مصر واستعمارها إلا أن المسئولين الانجليز لم يكونوا يستطيعون أن يفعلوا ما استطاعت مصر تحقيقه فى السنوات القليلة الأخيرة، ولم يكن بد من أن يعلنوا ويجاهروا بما حققته مصر من رفاهية وعز، فى هذا الصدد يقول اللورد كلارندون فى بداية حكم إسماعيل فى عام ١٨٦٩ فى رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية :

«إن مصر تقدمت من نواح عدة بالغة أقصى الرفاهية، وقد نشأت فيها مصالح أجنبية ـ يقصد استثمارات أجنبية ـ شاسعة الأطراف فمصر متقدمة على سائر الولايات العثمانية ومصلحة انجلترا وفرنسا كل المصلحة أن لا تنخفض إلى مرتبة ولاية عثمانية عادية» ...

ونترك شهادة اللورد كلارندون . ولنتابع رحلة الخديو السابق مستقلا قطاره الملكى ..

ومع وصول القطار الملكى إلى الاسكندرية الساعة الرابعة بعد الظهر حيث كان فى استقباله فى محطة القبارى المحافظ وكانت الجماهير المحتشدة على أرصفة المحطة تتزاحم من أجل رؤية الخديو الراحل.

تسيطر على الجماهير مشاهد الرهبة والحساسية والحزن والأسى ينتاب بهو المحطة والسكون والترقب والتحفز، وأيضا الهمهمات ترتفع هنا وهناك، مع صيحات متباينة ... يتزاحم أعيان الاسكندرية وتجارها ورجال الدين من حول القطار من أجل مشاهدة الخديو ويغادر الخديو القطار الملكى يحف به حاشيته وكبار مودعيه ويتزاحم مودعوه ويتزاحم كبار القوم والشيوخ لمصافحة الخديو وتوديعه ويغادر بهو المحطة ويستقل المركبة الملكية ذات الخيول المطهمة فى طريقها الى قصر رأس التين فى مركب مهيب ...

وفى الميناء كان الحشد أكبر مما سبق فهى النقطة الأخيرة للوداع والمحطة الرئيسية لمغادرة مصر للأبد ـ وسفن الأسطول المصرى العربى والأسطول التجارى تتزاحم على الأرصفة ، وركابها فى ترقب يطلون من قمراتها ومن مقاصيرها متسلقين صواريها وحبالها وأشرعتها وصفارات السفن تشق عنان السماء فى مجموعات بدرجات مختلفة وكأنها أصوات احتجاج أو صيحات ألم ... إجمالا هى سيمفونية درامية لانتزاع عاشق من أحضان معشوقته.

خلال هذه المظاهرة الإنسانية الهائلة، ركب إسماعيل زورقا من الزوارق المخصصة لأسرته، وزوارق المودعين وسار حتى استقل الباخرة المحروسة .. ولما وصل إليها أطلقت المدافع إيذانا بوصوله، ورفعت سفن الأسطول الحربى أعلامها تحية له، وازداد نشيج البواخر المزدحمة فى الميناء، وبقى الخديو على ظهر المحروسة مستقبلا بعض كبار المودعين الذين صعدوا المحروسة مودعينه الوداع الأخير ..

ولم يملك إسماعيل أعصابه الخائرة وروحه المهزومة، فترك مودعيه ونزل إلى مقصورته، بعد ذلك طلب ربان المحروسة من المودعين مغادرة الباخرة وبعد لحظات اقلعت المحروسة.

وفى هذا الصدد يقول إمام المؤرخين فى العصر الحديث عبد الرحمن الرافعى:

«لا يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بالعطف على إسماعيل والإعجاب بما أبداه من الشجاعة والإباء فى الأزمة التى انتهت بنزوله عن العرش، ورحيله إلى منفاه .. فقد كان حقاً عظيما فى موقفه، شجاعاً فى محنته، وناهيك بشجاعةجعلته يغامر بعرشه فى سبيل مقاومة الدول الأوروبية جمعاء، فلو هو ارتضى الذل والهوان وأذعن لمطالب الدول، وقبل عودة الوزيرين الأوروبيين يسيطران على حكومة مصر ومصايرها، ليضمن لنفسه البقاء على عرشه ولكنه آثر المقاومة على الاستمساك بالعرش، وقليل من الملوك والأمراء من يضحون بالعرش فى سبيل المدافعة عن حقوق البلاد.

فالصفحة التى انتهت بها حكم إسماعيل هى بلا مراء من الصحائف المجيدة مجاهدة وإباء وتضحية، وهى تعبير عن تضحية كبرى ، لأن عرش مصر وتاجها وصولجانها ليست من الأمور الهينة التى يسهل على النفوس العادية أن تزهد فيها، أو تغامر بها، ولكن إسماعيل ضحى بها فى سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية ولهذه التضحية حقها من الإعجاب والتمجيد.

ترك إسماعيل مصر فى أوائل يوليو عام ١٨٧٩ إلى منفاه الاختيارى فيما بين نابلى والآستانة الذى استغرقت مدته ستة عشر عاماً، وعندما نقترب من ذكرياته نجد أن مصر كانت دائما فى بؤرة خياله ووجدانه حتى مات عن عمر يناهز الخمسة والستين عاماً ، وإن كان موته الحقيقى قبل ذلك عندما وقع وثيقة تنازله عن عرش مصر لابنه توفيق فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ ـ وقبل ذلك عاش حياة حافلة بالمغامرات والأبهة بأسلوب المغامرة حيث خاض حروباً فى أوربا وأفريقيا وفى المكسيك أيضا كما عاش أعواماً رومانسية وكذلك أيام ضنك وهوان وخاصة معركة الاستثمارات الكبيرة والمشروعات العملاقة الطموحة التى ما زالت تتحدى الزمن ولقد أصر على إنجاز مشروع قناة

السويس ودأب على إنشاء شبكة السكك الحديدية التى وصلت إلى كل أرجاء مصر من أقصاها إلى أقصاها وحفر مئات الكيلو مترات من الترع المزودة بالأهوسة والكبارى لخدمة الملاحة النهرية والاقتصاد المصرى، وأيضا انشاء المصارف للمحافظة على جودة وتحسين الأراضى الزراعية وتمهيد شبكة الطرق لخدمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ..

لقد حقق إسماعيل ما كان يحلم به جده محمد على .. ولقد عاش المتناقضات إقتحم المستقبل وقاد المغامرات الرومانتيكية ولاحقته الإشاعات ورسمت له خيالات الحاقدين صور السكير، المتلاف .. لقد كانت حياة إسماعيل إجمالا سلسلة من الدراما، وكانت قمة هذه المواقف الدرامية يوم توقيعه على وثيقة تنازله عن عرش مصر وتركه ومغادرته لمصر..

ولنتابع سوياً رحلة إسماعيل من القاهرة إلى الاسكندرية ومنها إلى ميناء نابولى الايطالى حيث كانت أحاسيس وصيحات الجماهير فى كل مكان من قصر عابدين فى القاهرة حتى قصر رأس التين فى الاسكندرية تحاصره وتعبر عن حبها للوالى السابق الخديو إسماعيل الذى حقق لمصر ولشعبها الكثير فى مختلف المجالات .. هذا الأمر الذى استشعرته الجماهير بفطرتها وكيف أنه بذر بذور الحضارة والثقافة والرخاء لشعب مصر، وللشعوب التى حوله .. تلك البذور التى ستنمو أشجارا وارفة مع الزمن قد لا يرى الوالى ثمارها ولا تلك الجماهير ـ ولقد أسرف إسماعيل فى سبيل ذلك من أجل خدمة أجيال المستقبل وكان يعرف أن نسبة كبيرة من ميزانيته يذهب فى هذه المشروعات وكان دائم القول «إننى أبذر الذهب بذراً وآمل من المستقبل أن يقرنى على كل هذا الإسراف».

وهو ما تحقق فيما بعد عندما قال احمد حسنين باشا فى الاحتفال بذكرى وفاة إسماعيل فى سنة ١٩٤٥ : «العظيم من عمل ليوم لا يراه».

ونعود للحظة صعود الخديوى إلى الباخرة المحروسة التى ستقله مع أهله وحاشيته إلى نابولى حيث نلحظ تدفق الكثير من أبناء الشعب المودعين على ظهر السفينة وفى هذا يصف فارمان حرارة الوداع حيث قال :

«كان الخديو السابق هادئا كعادته باشا استقبلهم وصافحـهم فرداً فرداً وكان يعانق أصدقاءه المقربين على مألوف العادة الشرقية وكان بعضهم يقبل يده والبعض الآخر يقبل رداءه بينما كان الكثيرون ينحنون أمامه باحترام بالغ .. ولقد استغرق هذا المشهد ساعتين .. وما إن انتهى حتى أقلعت السفينة وسط دوى طلقات مدافع محييه فى الميناء».

وبدأت السفينة تمخر عباب البحر المتوسط مقلة لإسماعيل لبداية مرحلة جديدة من حياته تبدأ عند الخمسين من عمره الذى أمضى منه ستة عشر عاماً واليا على مصر.

إن الرحلة ليست بجديدة، فلقد تعود عليها فى صدر شبابه عندما أمضى أكثر من خمسة عشرة عاماً غريبا يطلب العلم كما سبق أن أوضحنا. ولكن الظروف مختلفة فى هذه المرة حيث وقف إسماعيل وعيناه مغرورقتان بالدموع ينظر إلى الاسكندرية ورويداً رويدا ومع اتجاه الشمس إلى المغيب لتطوى صفحة من صفحات التاريخ الحافلة جلس يستعيد ذكرياته الأولى وكيف كان والده يكافئه على ركوب الخيل فى الفترة التى قضاها فى دمشق وكيف كان يثنى عليه كلما حفظ صفحات من الأدب والتراث العربى القديم وكيف كان يحفظ دروسه على أنغام الحجاز والحسينى وتداعت فى ذاكرته فيينا حيث كانت رحلة علاجه من الرمد الذى أصاب عينيه وما لاقاه من عطف من (والدته) وكيف استغل فرصة وجوده فى النمسا لإتقان اللغة الألمانية وتعلم الفرنسية .. ثم انتقلت ذاكرته إلى باريس منارة الثقافة والعلم وكيف كان استقباله من البلاط الملكى الفرنسى لمأمورية التعليم ورسم له تخطيطيا ليوجه إلى التعليم العسكرى حسب رغبة جده ووالده بكلية «سان سير» الحربية وكيف تجول فى مراكز الثقافة المختلفة فى العاصمة الفرنسية.

هكذا كان شريط الذكريات يلاحقه ويلازمه حتى استقرت المحروسة فى ميناء نابولى حيث انتقل إسماعيل إلى ميلانو فى فيلا «فافوريتا» التى جهزها له الملك «أمبرتو» ملك إيطاليا وهناك استرجع ذكريات مؤلمة حول الدسائس التى قام بها الانجليز ليقصوه عن مصر والكيد له عند السلطان.

وجلس يفكر فى حال مصر، وحال ابنه وقرة عينه توفيق الخديو الجديد الذى لم يبلغ الثلاثين من عمره وكيف سيواجه بريطانيا وبدأ يراقب ما ستخفيه الأيام لمصر وحاكمها الذى كان يرغب رغم كل شئ فى التمكن من إنقاذ مصر وبحسن نية بدأ توفيق الاستماع إلى نصائح الدول، وأعاد إنشاء المراقبة الثنائية ذلك الوجه القبيح للسيطرة على مصر من خلال اللجنة الدولية للتصفية بمعرفة الفرنسيين والانجليز وهى تلك اللجنة التى منحت الأمل لحكومة توفيق فى الاصلاح الذى لم يتحقق أبداً .. وهكذا كان توفيق لقمة سائغة مما ساعد على تدخل الانجليز بالوقيعة حيث كان المناخ متاحاً لذلك نظرا لأن الجيش كان يضم إلى جانب المصريين آخرين من الجراكسة وغيرهم مما ساعدهم فى إشعال نار الفتنة فيما بينهم حيث أسفرت عن ثورة عرابى التى أدت إلى عزل رفقى باشا من وزارة الحربية وتعيين محمود سامى البارودى إلا أن الأمر ازداد سوءاً وتقدم عرابى بإنذار الخديو فى ساحة قصر عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وبدأت القلاقل . وتحرج موقف توفيق مما أثار عليه عطف والده إسماعيل الذى كان يرقب الموقف عن كثب ولقد استغلت بريطانيا هذه القلاقل لتدخل إلى مصر بحجة تدعيم العرش وإعادة الأمن وحماية المصالح . وحقيقة لم يطلب الشعب الحماية ولا الخديو ولا المصالح ولقد كانت هذه قمة المأساة واتضح كيف خطط الانجليز لإقصاء إسماعيل عن حكم مصر حتى يتمكنوا من مصر. ويقول الخديو عباس حلمى فى هذا الصدد عن موقف والده توفيق :

«وجد والدى نفسه فى دائرة مثبطة للعزيمة وظالمة لا يمكنه تبرير أفعالها ، ودائرة من الحقد والعنف والشكوك وأصبحت يده مغلولة ووجد نفسه مهزوماً فى عمله كحاكم .. ولقد عمل كل من الباب العالى واللورد كرومر والمراقبون الأجانب ... وسلبية رجال السياسة على وأد أى مبادرة أو قرار كان يمكن أن يتخذه فى الوقت المناسب» .

وظل إسماعيل فى منفاه يعانى مما تعانيه مصر مما دفعه إلى مغادرة نابولى وشد الرجال الى الآستانة لعله يكون قريبا من مصر ويستطيع أن يكون قريبا من السلطان فاستقر به المقام فى قصر «الأميرجان» المطل على البوسفور بالقرب من قصر طوب كابى حيث الباب العالى والصدر الأعظم، متوهما انه قد يستطيع أن يحمى مصر وابنه من كيد بريطانيا ولكن كانت الامبراطورية العثمانية حينذاك تعتبر الرجل المريض وأن القرب منها أو البعد عنها لن يغير من القدر شيئا .

وظلت مصر تئن من الظلم وتوفيق يعانى من الكمد ويشرب كأس المرارة كاملاً حتى أتى عليه الموت، وهو بعد لم يبلغ الأربعين عاماً .. فقد توفى فى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ وسيطر الحزن على إسماعيل الذى ظل يراقب اعتلاء حفيده عباس عرش مصر وهو لم يبلغ بعد السابعة عشرة حيث استدعى من فيينا وفى ميناء تريستا الإيطالى وهو يستعد للإبحار إلى الاسكندرية طلب منه السلطان الحضور إلى استانبول ، وكان إسماعيل فى أشد الشوق لرؤية حفيده . ويقول عباس أنه كان فى شوق لقبول العرض حتى يستطيع سماع نصائح جده إسماعيل ولكنه استشعر الخطر فلم يذهب وظل إسماعيل يرى مصر وهى تتردى ولم يستطع أن يفعل شيئا الأمر الذى أثقل كاهله وزاد من وطأة سنى العمر والشيخوخة وتبعها المرض ولم

يلبث برغم ضراوة روح التحدى التى كان يتحلى بها أن تتضافر كل هذه الظروف التى ذكرناها لتزهق روحه بعد سبعة أعوام من تولى حفيده خديوى مصر حاكما لها.

وفى صباح يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ خرجت البرقيات المتتالية من استانبول منها برقية بيتمان سفير بريطانيا فى استانبول للخديو عباس حلمى الثانى نصها ما يلى:

«يؤسفنى إنباء سموكم أن ساعة الاحتضار قد أزفت».

وفى نفس الوقت برقية أخرى إلى روبيه بك ينبئه بوفاة الخديو نصها :

«أرجو منكم أن تنبئوا سمو الخديو أن جده أسلم الروح فى الساعة الثامنة وخمس دقائق من هذا الصباح» .

وأيضا فى نفس اليوم تسلم الخديوى برقية من الأمير إبراهيم حلمى تحمل نفس المعنى ..

وتم تنفيذ وصية إسماعيل باشا الذى وافته المنية عن خمسة وستين عاماً بدفن جثمانه بمصر حيث دفن بمسجد الرفاعى الذى شيدته والدته قبل ذلك بحوالى عشرين عاماً وهكذا استقر إسماعيل ودفن فى ثرى مصر معشوقته بعد أن صال وجال وترك فى كل مكان على أرض مصر بصمة حضارية أو ثقافية أو فنية أو اقتصادية أو هندسية أو معمارية أو تنويرية يشهد لها التاريخ.

أرجو أن أكون قد أديت الأمانة بصدق لإنسان خدم مصر وقدم لها الكثير .. إنسان عشق مصر كما أعشقها.

المراجع

١ ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ دار الشروق ١٩٩٣ .

٢ ـ إسماعيل كما تصوره الوثائق «جورج جندى وجاك تاجر» مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ .

٣ ـ لمحة عامة إلى مصر «كلوت بك» ـ دار الموقف العربى ١٩٨٢ .

٤ ـ عصر إسماعيل (جزء أول) «عبد الرحمن الرافعى» ـ دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٢ .

٥ ـ عصر إسماعيل (جزء ثانى) «عبد الرحمن الرافعى» ـ دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٢ .

٦ ـ مذكرات نوبار فى مصر ـ عرض وتحليل نبيل زكى ـ كتاب اليوم ـ الأخبار ١٩٩١ .

٧ ـ محمد على «كريم ثابت» ـ مطبعة المعارف ١٩٤٩ .

٨ ـ تاريخ البحرية التجارية المصرية ـ خلف الميرى ـ هيئة الكتاب ١٩٩٢ .

٩ ـ محمد على «د. حسين كفافى» هيئة الكتاب ١٩٩٢ .

١٠ ـ القاهرة فى ألف عام ـ نخبة من العلماء والفنانين ـ هيئة الكتاب ١٩٦٩ .



الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٩٠٨١

I.S.B.N. 977-01-4136-4





بين دفتى هذا الكتاب ... قصة الخديو إسماعيل ومعشوقته مصر.

يتناول الكتاب ما تحقق على أيدى إسماعيل خلال فترة حكمه، التى استمرت قرابة الستة عشر عاماً.

وحسب إسماعيل الكثير الذى تركه لمصر، من القيم الحضارية النبيلة، التى تجسدت فى إنشاء البنية الأساسية لمصر كلها، من مد شبكات السكك الحديدية، وشق الترع، وإقامة الجسور، والطرق، وإقامه الكبارى، وكذلك تخطيط وإنشاء المدن الجديدة الكبرى، واستكمال الأحياء، وتجميلها، وإنشاء الحدائق، ووضع الأساس للنظارات والمصالح الحكومية والمؤسسات الدستورية، والشعبية، والفنية، والثقافية القومية، كالأوبرا والمتاحف، فأتم بذلك ما قد أرساه جده محمد على باشا، مؤسس مصر الحديثة.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب